عالم الطير في مصر

تأليف

أحمد عبد الخالق

الكتاب: عالم الطير في مصر

الكاتب: أحمد عبد الخالق

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبد الخالق ، أحمد

عالم الطير في مصر/ أحمد عبد الخالق

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٧١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٦٤ – ٦٨١٨ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٠٢٣ / ٢٠٢٠

عالم الطير في مصر

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

الطيور من الحيوانات الفقارية ذوات الدم الحار، أجسامها مغطاة بالريش، ومركبة من رأس وعنق وجذع وطرفين، وينتهي الجذع بذيل قصير بحيث يشبه الجسم القارب في شكله الخارجي العام، رأسها صغير الحجم بالنسبة للجسم، وذلك راجع إلى ضرورة توافر توازن لين الجناحين في انبساطهما أثناء الطيران، والفم كائن في مقدمة الرأس، وينتهي بمنقار قرني صلب، يقاس عادة من الطرف إلى قاعدة الجبهة لمعرفة الصنف والنوع، وفيه عند التقائه بريش الرأس جزء رخو يعرف بالقيرو، ويعتبر الجزء الحساس من المنقار، وهو في الحمام أكثر ظهوراً مما في غيره، وبالمنقار فتحتان تختلفان شكلاً باختلاف نوع الطائر، وعند مؤخرة المنقار أي في زاوية الفم ريشات صلبة مدببة تعرف بالأهلاب، وخلف الجبهة تقع القنة وهي أعلى جزء في الرأس وعلى جانبيها العينان وهما كبيرتان نوعاً، وخلف كل منهما فتحة الأذن الخارجية.

ويلي الرأس القفا فالعنق فالظهر فالعجز فالذيل، ومن أسفل خلف الحلق يوجد الصدر فالبطن فالمخرج، وبأعلى الذيل غدة كمثرية الشكل، تعرف بالغدة الزيتية، تفرز سائلاً زيتياً يستخدمه الطائر في تنظيف ريشه من الأدران، وبأصابع اليد، وكلها مغطاة بالريش، زوائد قرنية هي الأظافر، في حين تنتهي أصابع القدم بمخالب كبيرة، وفي الطرف

الأسفل تبدو القصبة والرسغ فالحراشف، ويتكون الجناح من ريش القوادم، وهي المتصلة بأصابع اليد، ثم الحوافي، وهي المتصلة بعظام الساعد، ويتصل بالكتف الريش الكتفي، وبالإبط الريش الإبطي، ويغطي ريش الجناح مجموعتان من الريش الصغير، ويغطي ريش الذيل مجموعتان أخريان، وريش الطائر يتساقط كل عام ليحل محله ريش غيره، وذلك قبيل فصل التزاوج، وهو لا يتساقط دفعة واحدة بل اثنتين اثنتين، وفرخ الطير عندما يفقس من البيضة يرى مغطى بريش ناعم كالزغب سرعان ما يستبدل به ريش أكثر صلابة وأخشن ملمساً.

وقد اختلف علماء الطير فيما إذا كانت هذه المخلوقات قد وجدت منذ قديم الزمان، بل لعل مشكلة وجود سلسلة متصلة الحلقات من الكائنات قد توصلنا إلى الوقوف على زمن نشأة الطير هي من المسائل التي لم يتوصلوا بعد إلى حلها، فقد وقف بهم البحث عند القول بأن ظهورها جاء فجائياً دون تسلسل، وإن جاء العالم الألماني أندريا فاجنر[١]، ومن بعده العلامة مارش[٢]، الأول بهيكل عظمي لمخلوق يشبه الغراب، والثاني بهيكل آخر لطائر ضعيف الجناحين مهضومها بدعوى أن في هذا الأخير ما يثبت أنه كان يغوص في الماء بحثاً عن سمكة يتبلغ بها، وأن الهيكل العظمي للأول والثاني فيهما الحلقة المفقودة التي أعيا العلماء البحث عنها.

---

(١) Andrea Wagner

(٢) Msrsh

والطيران في الطيور عملية من أغرب العمليات، وهي على ثلاث مراحل، الأولى وتعرف بالانزلاق يبسط الطير فيها جناحيه دون أن يحركهما، والثانية وهي الدفيف يضرب فيها بجناحيه رفعاً وخفضاً ضربات متتابعة، وأخيراً طيران الصف ويأتيه الطير بجناحين منبسطين فلا يحركهما، وهي درجة من التحليق لا يستطيعها إلا بيض الطيور، كالعقاب والنسر والحدأة المصرية والنورس، وما شاكلها.

وتخضع الطيور في قوة طيرانها وضعفها لشكل جناحيها وقوة عضلاتها الصدرية، والنسبة بين ثقل الجسم ومساحة الجناحين، على أن للذيل مهمة أخرى هي تغيير الاتجاه حسب رغبة الطير ووجهته، وظاهرة الطيران هذه بمراحلها الثلاث هي من أعجب الظواهر الطبيعية، بسبب صعوبة القيام بها وتفسيرها قاطعاً علمياً مانعاً، بل لعلها من المسائل الأخرى التي واجهت علماء الطير دون أن يستطيعوا حلها.

والطيور تنقسم إلى ثلاث أقسام كبيرة هي: النعاميات وأفرادها تتميز بأن ريشها غير متماسك فليس لها إلى الطيران سبيل، وأنها كبيرة الحجم بالنسبة لغيرها من عالم الطير، ثم السننات، وتحتوي على عدد قليلاً من الأجناس البائدة، وتمتاز بأن لها أسناناً وليست لديها القدرة على الطيران كالقسم السابق، وأخيراً الزورقيات، وتشمل باقي أنواع الطير وهي على فصائل كما سنرى.

والطيور كافة تتأثر بحمارة القيظ وصبارة البرد مثل كافة الكائنات الحية الأخرى، فإذا أقبل الربيع دبت فيها حياة جديدة مليئة بالحركة،

تبعث في جوانح شبابها العاطفة والحب، وتقارض التشبيب والغزل والاندفاع نحو التزاوج وإنجاب البنين، فترى في كل مكان طروبة جذلة، تنشط في جولات قصار متسمة بالغزل تارة والتطريب طوراً، لكي يأنس الأليف إلى أليفة والزوجة إلى زوجها، ثم يعمد الاثنان تواً إلى بناء مثوى لهما بعد أن يزيناه ويقويا من جدرانه، استعداداً لتلقي أفراخهما الزغب التي يتعهدانها بالدفء والغذاء والتنشئة الحسنة، ليفعل بها الربيع التالي مثل ما فعله بوالديها ربيع اليوم.

ولعل من أعجب وأشهر ما اتصفت به الطيور إرسالها النغم العذب، والتصديح الذي يأخذ بمجامع القلوب، وتلك الموسيقى الرقيقة مما ضرب الناس به الأمثال، وأشادوا به في نثرهم ونظمهم وأغانيهم، هذا فضلاً عن جمال منظرها، ورائع تلوينها، ودقة أجرامها، وفضلاً أيضاً عما يتخذه البعض منها، من تجارة رابحة، ودراسة نافعة كانت ومازالت موضع نشاط الكثير من الجماعات والجمعيات العلمية والثقافية التي تعنى بنشر هوايتها والإشادة بمحاسنها.

ولعل من تحصيل الحاصل، القول بأن ذلك التطريب العذب الذي تصدح به الذكورة من الطير هو لاجتذاب الأنثى إليها، وإعجابها بها، على أن من الطير ما يرسل النغم طوال العام، لا يصده البرد القارس، ولا يثنيه الحر القائظ، ومنها ما ينقطع عنه في غير أيام الربيع كأنه يشعر لانقضاء أيامه بحزن ممض، وألم موجع.

ولكن لنعد ثانية إلى غريزة الغزل عند الطير فنقول: إنها لازمة من لوازم أفراده، يتودد بها الذكر إلى أنثاه ابتغاء اجتذابها إليه وإقبالها عليه، وهذه الغريزة وإن تكن شائعة بين عالم الحيوان، فهي في حياة الطير خاصة أكثر ظهوراً، وأوضح أثراً؛ إذ لولاها ما استطاع الذكر أن يقترب من أنثاه، ولا أن يفوز بتسليم قيادتها إليه، ون أسباب إقبالها عليه، إعجابها بفنه إذ يتيه أمامها بمفاتن هيئته وشجي نغماته وروائع ألوانه، لذا كانت الذكورة أرشق قداً وأرق صوتاً وأبدع لوناً وأعذب نغماً من الأنثى – ألسنا نشاهد أن الكثير من هذه الذكور تتوج رؤوسها قنازع [١] مزركشة [٢] وأن الألوان الجذابة التي وصفها الكتاب والشعراء فأجادوا، ورسمتها ريشة المصورين فأبدعوا، هي مما يتمتع به الذكور دون الأنثى.

على أن غزل هذه المخلوقات هو على أضرب وفنون، نذكر منها ما نشاهده كل يوم في دنيا الدواجن، إذ يختال الذكر أمام أنثاه وكأنه يدل بقوته ومتانة ساعده ويزهو بريشه اللامع وحسنه الخلاب، وهو لا ينقطع عن اللف والدوران حولها، ومد جناحيه نحوها، وقرع منقاره بمنقارها؛ لكي تلين قناتها.

ولعل فيما يأتيه أفرخ هذه الأنواع من الرقص العنيف، ومن وثوب ذكر الحمامة [٣] للطوقة إلى رؤوس الأشجار وهبوطه ثانية في سرعة

---

[١] وأحدها قنزعة وهي الجمة من الشعر في مقدم الرأس.

[٢] مزخرفة.

[٣] Ring Deve.

مذهلة بجناحين ساكنين، وما تفعله ذكران الطاووس[١] من التيه والدل بجمال هيئتها، ونشرها ريشات ذيلها في شكل فني رائع، وما يقوم به الأرغوس[٢] من بسط ريشه ورفع ذيله، ومن الرقص التوقيعي مع الإتيان بحركات أخرى راقصة برجليه تارة ورأسه طوراً، وهو ينشد بذلك لفت نظر أنثاه واستدرار عطفها عليه وبذل قلبها له، ثم ما يدور بين الأبلق الأبيض[٣] وصاحبته من مناوشة تبدؤها الأنثى بوثوبها إلى رأس صخرة عالية، ثم وقوفها هناك ساكنة ليلحق بها الذكر في التو ماداً جناحيه إلى أسفل حتى يلمس الأرض، ومطأطئاً برأسه وفاحصاً الأرض بمنقاره، ومتمتماً بصوت خفيض، ثم يبدأ اللف والدوران حولها مرات عديدة، وهنا تنقض عليه الأنثى فتضربه بمنقارها، وتهرب لواذاً إلى صخرة أخرى فيتبعها، ثم يرفع عقيرته بالتصديح والترنيم في نبرات موسيقية رقيقة، تستمع إليها الأنثى وهي ساكنة لا تريم، وقد خلا لهما الجو وابتعدا عن أعين الرقباء، وما يأتيه التفلق [٤] من الرقص العجيب الذي يهتاج له باقي الحاضرين من التفلق، فيندفعون من مكان إلى آخر، يختلي فيه بعضهم إلى بعض، مما ينهض دليلاً على قوة غريزة الغزل عندها.

بل لعل الأدعى إلى العجب هو ما ينظمه بعض أنواع الطير مثل الزقزاق [٥] من إقامة الحفلات، وتبادل الزيارات في أيام الربيع على

---

(١) Pheasant.

(٢) Argus Pheasant.

(٣) White Chat.

(٤) Water Rail.

(٥) Lapwing.

النحو الآتي: يبدأ واحد من الزوجين الشريكين بزيارة زوجين آخرين في عشهما، فيستقبله هذان استقبالاً حافلاً، ثم يؤلف ثلاثتهم موكباً يتصدره الزائر ويسيرون بخطى متزنة وئيدة مرددين نغمات عالية كأنها قرع الطبول، ثم يقفون فجأة ليرفع الزائر جناحيه ويصطف الاثنان وراءه ويلمسا الأرض بمنقاريهما كأنهما يقدمان فروض التحية والإجلال، ويظل الجميع على هذه الحال بضع دقائق ينفض الحفل على أثرها، ويتجه الزائر إلى مثواه حيث أليفته لينتظرا زيارة فرد من جيرانهما ويقوما بنفس المراسم، والطيور في غزلها وحياتها الزوجية شديدة الغيرة، فيثور الزوج لتعرض أي ذكر لصاحبته، وكثيراً ما يشتبك معه في عراك دام إن لم يقلع المتطفل عن تطفله، وفي هذه الأثناء تظل الأنثى بمشهد منهما، تلهب زوجها حماساً وتبعث الفضول في المعتدي حتى يغلب على أمره.

فإذا انتهى طور الغزل شرع الزوجان في بناء مثوى يضمهما وتضع فيه الأنثى بيضها ثم أخذت تحتضن بيضها إلى أن تحين ساعة النقف (الفقس) وخروج الأفراخ – على أن الطيور ليست كلها قادرة على تكوين أعشاش ثابتة الأركان، تتوافر فيها الراحة والطمأنينة، بل إن بينها تبايناً كبيراً في ذلك المضمار، فمنها ما يضع البيض على الأرض دون غطاء أو وفاء، ثم تأتي الأنثى فترقد عليه، كما تفعل أنثى السيد[1]– ومنها ما يبني أعشاشها هي آية في المتانة والتناسق، كالغربان والجوارح فإنها تستعمل لهذا الغرض سوق النباتات الجافة وأوراقها، ثم تدس بينها خرقاً

[1] Nightjer طائر لا يطير إلا ليلاً وهو أكبر من الخطاف (Teru) حجماً.

وقصاصات من الورق الخفيف اللين الملمس، بل إن منها ما يستعمل مواد أدق حجماً من دقاق العيدان وأطراف النبات والهشيم، ثم تبطن العش بالطحالب وقطع القماش اللينة مثل طائري الظالم [١] والحسون [٢]، ومنها ما يستعمل ندف القطن في تبطين العش من الداخل، مثل الطائر الطنان [٣]، أو يبطنه بنشارة الخشب المتعفنة والروث الجاف بعد تنديته بقليل من لعابه لكي يبعث الدفء في العش وتتماسك جدرانه كما تفعل السمامة [٤]، وهناك الكثير من الطيور التي تبني أعشاشها، ثم تشدها إلى حبل متين، أو تلصقها إلى أصل فرع شجرة، أو رأس صخرة مرتفعة مثل طير التنوط [٥] التي يصنعها على هيئة كيس من سعف النخل أو الدوم بصورة تبعث على الدهشة والإعجاب، ثم يعلق العش بطرف حبل طويل جاعلاً مدخله إلى أسفل حتى لا تستطيع الحيات والثعابين والهوام الفتك بفلذات أكبادها..

وقد كان للمؤلف حظ مشاهدة عدد لا يحصى من هذه الأعشاش في غير واحدة من غابات الطلح المنتشرة في السودان أيام خدمته به، بل لعل من أدعى هذه الأعشاش إلى الدهشة بيت الطائر الخياط [٦]، فإنه مع تعقد بنائه ودقة نسجه يعمد الطير إلى العريض من أوراق النبات

---

[١] Ghaffiuch وهو عصفور حسن الصوت.

[٢] GoldFinch وهو عصفور يعرف باسم أبي زرقابة.

[٣] Humming Bird وهو أصغر الطيور المعروفة حجماً وموطنه أمريكا.

[٤] Swift وهي الخطاف الجبلي أيضاً.

[٥] Weaver Bird.

[٦] Tailor Bird.

فيثقبها في عدة مواضع بالقرب من الحرف، ثم يولج في تلك الثقوب خيوطاً من نسيج العناكب يشد بها الحرفين إلى بعضهما، ومن ثم يحصل على تجويف يشبه القرطاس الذي يستعمله الباعة، ثم يغلقه بندف القطن أو نحوه، وفي نفس الوقت يثقب الورقة في مواضع أخرى، يضع فيها فتلات القطن؛ لكي يجعل حرفي الورقة أكثر التصاقاً وتماسكاً، وكما لو كان على علم بضعف خيط العنكبوت وتفاهته؛ لذا نراه يدخل في الثقوب الأولى فتلات من القطن كأنها سدى للنسيج ويشدها شداً محكماً وليجعل من مثواه كتلة متماسكة محبوكة الأطراف، بل من الطير من تبني أعشاشها جماعات مع المحافظة على استقلال كل فرد منها في عشه لا يبغي واحد على الآخر، وغني عن الذكر أن الطائر لا يستخدم سوى منقاره في هذه العملية المعقدة المتعددة المراحل.

أما البيض فليس لازما أن تكون أحجامه متناسبة مع كبر حجم الطير وصغره، فطير الدج [١] مثلاً في حجم ما يعرف عندنا ومع ذلك فإن البيض في كل منهما مختلف عن الآخر اختلافاً كبيراً، كما أنه ليس ضرورياً بحال أن يكون البيض على وجه العموم أبيض كالشحم كما يتبادر إلى الأذهان، فهو وإن يكن أبيض في الدجاج والأوز والحمام وغيرها، فهو غير ذلك في كثير من الأنواع الأخرى، إذ هو في الشبنم [٣] أخضر اللون، وفي الغراب بني مائل إلى الكدرة، ومع ذلك فاختلاف

---

[١] Tudus طائر في حجم الهدهد، وهو أنواع كثيرة.

[٢] Common Snipe ويعرف أيضاً بالشنقب المعتاد.

[٣] Cassowary وهو طائر يشبه النعامة موطنه أستراليا.

اللون لا يخلو من معنى، وأنه ليس وليد الصدفة بحال، بل إن للطائر منفعة في ذلك تعادل ما يقوم به ذلك الكائن الحي من جهد في إفراز المادة الصابغة، فقد زعم بعض علماء الحيوان أن اللون إنما يجيء متسقاً أو يكاد مع لون الوسط الطبيعي الذي ينتمي إليه، وبهذه المناسبة نشير إلى المساعي التي يبذلها مربو الدجاج، بغية أن يكون كل بيض دجاجتهم إناثاً، إنهم لم يجدوا أمامهم ما يساعدهم بيولوجياً إلا اتباع القاعدة المعروفة من أن المبايض الكثيرة الغذاء تأتي أجنتها إناثاً والعكس بالعكس، وقد ادعى بعض هؤلاء العلماء أن التجارب أظهرتهم على أنه إذا كانت الدجاجات كبيرة الحجم والديوك صغيرته، جاء أغلب الأفراخ إناثاً.

ومن أعجب ما يلاحظ في هذا الباب أن كل إناث الطير تضع من البيض عدداً بعينه في كل بطن، فبعضها يضع من ثلاث بيضات إلى خمس، وبعضها الآخر من أربع إلى ست وهكذا، غير أنك إذا رفعت من تحتها بعض بيضها، وضعت هي سواها بدلاً منها، وهي قدرة عجيبة على الإنتاج عند الطلب، أقل ما يقال فيها إنها لا يصدقها العقل، وقد ذكر بعضهم أنه أجرى تجربة علمية نشر نبأها في مجلة "ذي أوك" منذ عدة سنين مؤداها أنهم عمدوا إلى أنثى طائر يعرف بالنقار[1]، فأخذوا من عشها كل بيضها إلا واحدة، وظلوا يكررون ذلك كل يوم ليروا إلى متى

---

[1] Wood Peeker وهو طير ينقر جذوع الشجر ويستخرج الحشرات المختبئة فيها.

تظل تضع من البيض بدل ما سرق، فوضعت الأنثى ٧١ بيضة في ٧٣ يوماً.

ومدة الحضانة التي يمضيها الطير على البيض تختلف باختلاف النوع، فالنعامة تقضي نحو ستين يوماً، والبطة نحو ثلاثين، والدجاجة نحو عشرين، والعصفور نحو اثني عشر يوماً، ويعزو بعض الباحثين هذا التفاوت إلى عامل نشاط الطائر وحيويته، بسبب ما يعتريه في أثناء الحضانة من الضعف وبلادة الحركة، ذلك بأن الطير يعيش عيشة كلها نشاط وتفجر، كالذي نلمسه في سجعها ونغمها من حرارة وقوة، فدرجة أجسامها تتراوح بين ٤٠ و ٤٤ درجة مئوية، وكل من راقب الطير من قريب لم يخطئ بصره أن يرى بدنه يهتز بسبب الخفقان الشديد الذي يحدثه نبض قلوبها. ومع كل فقد تتأخر عملية الفقس عن ميعادها الطبيعي، وعندئذ لا يتردد الطائر في أن يستمر في الحضانة حتى يفقس، فإذا يئس من خصوبة البيضة فإنه يحطمها مرغماً، والذي يقوم بالحضانة عادة هي الأنثى، ومع ذلك فكثيراً ما يتناوبها الزوجان، بل إن في بعض الأنواع تكون عملية الحضانة مقصورة على الزوج دون الزوجة.

ومنذ آلاف السنين لفت نظر الإنسان ظاهرة هجرة الطير من مكان إلى مكان، حتى لقد وجد على أحد الآثار المصرية ما يفيد أن الكراكي[١] وصلت إلى أرض مصر في ميعادها المحدد من كل سنة، ولم تزل هذه

---

(١) وأحدها كركي Carare وهو طائر أغبر اللون أبتر الذنب طويل العنق والرجلين يعرف عندنا بالزهو، وفي بعض التصانيف العربية بالغرنوق.

الهجرة إحدى غرائب الطبيعة التي تخلب الألباب، ألسنا نشاهد بين الحين والحين جماعات كبيرة من الطير تطير في السماء وقد نفرت من أوطانها لغير علة ظاهرة، إلا أن يكون حلول البرد أو الحر في فصولها المعروفة، وإلا أن تكون قلة الزاد في مكان ووفرتها في مكان آخر، وإلا أن يكون ازدياد نسلها أحرجها حتى لم تجد مفراً من الهجرة إلى مكان آخر، لعلها تجد فيه مرتعاً فسيحاً وعيشاً رغداً، وقد يكون غير هذا وذاك، على أن المجمع عليه هو أن اختلاف المناخ صيفاً وشتاءً على هذه المخلوقات هو الذي يحفزها إلى الهجرة، وقلة الكلأ وندرة الماء يدفعان بعض الحيوانات إلى البحث عنهما في غير مواطنها، والطير التي تهاجر من مواطنها تعرف بالقواطع، وهي مثل السماني [١] والوروار [٢] وهي تعود دائماً هي ونسلها إلى مواطنها الأولى التي بدأت منها رحلتها، وليست تلك الظاهرة مطردة في كل الأنواع، ولكن هناك طيوراً لا تبرح مواطنها، وتلك هي الطيور الأوابد أي غير المهاجرة مثل الغراب والحدأة وغيرهما من الطيور المصرية.

أما شيخ الرحالة من غير منازع فهو الخطاف القطبي[٣] فهو مع صغر جرمه يقطع منطقة القطب الشمالي في أمريكا عابراً شمال المحيط الأطلسي إلى أوروبا، ثم ينحدر متخذا الساحل حتى يجتاز إفريقيا إلى

---

[١] Quail وهو السلوى من رتبة الدجاج يفد إلينا من شمال أوروبا.

[٢] Liatle green Bee-Eater وهو طير طويل أخضر المنقار يضرب ما تحت عنقه إلى الصفرة.

[٣] Lithe Tern.

المحيط في منطقة القطب الجنوبي، ثم يعود أدراجه إذا حل الربيع وقد قطع في رحلته ٣٤٠٠٠ ميلا.

وهنا لا بد من ذكر شيء عن عادات الطير، وإن يكن من العسير على باحث أياً كان أن يضع حداً فاصلاً بينها وبين غرائزها فكلها ناشئة من طبيعة واحدة، على أن من هذه العادات أو الغرائز ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب، من ذلك تمييز الأم لصغارها التي تزقها لكي تقف على ما أخذ منها كفايته من الطعام وما لم يأخذ، وقد تتولى الطبيعة أمر حل هذا الإشكال بذلك النظام الدقيق الذي ركب في حلقوم كل فرخ، فهو إذا امتلأ أو كاد أبطأ في ابتلاع ما يزق به، فما على الأم عندئذ إلا أن تزق الذي يفتح لها منقاره كيفما اتفق، ثم تراقب نتيجة ذلك بدقة، فإن رأت أن الطعام لا ينزلق في الحلقوم لساعته امتصته ثانية وزقت الذي يليه، فالذي يبتلع الطعام من فوره هو أفرغها من الطعام جوفاً وأدعاها إلى الامتلاء، ومن ذلك أيضاً السبب في عدم استرخاء قبضة الطائر من على الغصن أو القضيب الذي يجثم فوقه حين يغلبه النعاس، أما السبب في ذلك فراجع إلى أن الأوتار التي تحدث البسط والقبض في مخلب الطير تلتف حول مفصل ساقه ساعة ينام، ويثني ثقل جسمه وتشد الأوتار أصابعه والمخالب المتصلة بها لتشتد قبضته على غصن مجثمه وتظل تفعل ذلك تلقائياً، ومن ذلك أن قوانص الطير هي بمنزلة الأسنان من الحيوانات الأخرى، وتنتقي الحصى ليساعدها على تفتيت الحبوب وتكسير حيوانات البحر ذات الأصداف وغيرها فتحيلها إلى رمل ناعم، وذلك بمساعدة العصارات القوية التي تفرزها معداتها.

وتختلف الطيور في طرق معيشتها، فمنها ما ينشد طعامه في ساعات النهار وهي الغالبة، ومنها ما يبحث عنه ليلاً كالبوم والسبد الذي تقدمت الإشارة إليه، والغراب أذكى الطيور وأوسعها حيلة، فقد شوهد غراب في إحدى قرى الإنجليز قد سرق كثيراً من حلي النساء، وثم قصة معروفة متداولة هي: حين أراد غراب أن يستسقي من الجرة التي لا تحتوي إلا قليلاً من الماء أخذ يرمي فيها بالحصى حتى ارتفع منسوبه وأصبح في متناوله كرع منه ما شاء، وغير هذا وذاك مما سوف نعرض له في متن الكتاب بقدر ما يسمح به المجال.

رتب الطيور

من المعلوم أن الكائنات تنقسم إلى ثلاث ممالك رئيسية هي: الحيوان والنبات والجماد، وأن مملكة الحيوان تنقسم بدورها إلى قبائل وطوائف ورتب وفصائل، فضلاً عن تفرعها إلى أقسام أخرى متداخلة لا يتسع المقام لذكرها؛ فالقبيلة هي الجماعة التي ينتمي أفرادها إلى أصل واحد، والطائفة هي الجماعة من الأحياء فوق الرتبة ودون القبيلة، والرتبة هي مجموعة الفصائل المتشابهة، والفصيلة هي مجموعة من الأجناس يتشابه أفرادها في خصائص مشتركة.

ولما كانت الطيور المصرية هي وحدها موضوع بحث هذا الكتاب، فإن المقام يقتضينا أن نسهب بعض الشيء في الإبانة عن الرتب والفصائل التي تنتظم هذه الكائنات الحية، تمهيداً لشرح خصائص كل منها استيفاء للبحث والاستزادة من الفائدة.

أما تلك الرتب فهي: الغواصيات، والأنفقنويات، واللقلقيات، والوزيات، والصقريات، والدجاجيات، والكركيات، والقطقاطيات، والكوكيات، والضؤضؤيات، ثم العصفوريات.

وكل واحدة من هذه المراتب تنطوي على فصائل تنتظم أفراد الطير موضوع هذه الرسالة؛ فمن الغواصيات الطائر المعروف بالغواص أو

الغطاس[1]، وهو من طيور مصر الأوابد النادرة الظهور، وإن قيل إنه يشاهد أحياناً في الفيوم وبحيرات الدلتا ضمن جماعات صغيرة، وقد ورد ذكره في كتاب عجائب المخلوقات للقزويني بأنه من طيور جزيرة تنيس ببحيرة المنزلة، وهو طائر مائي يجيد الغطس والهرب حاملاً أفرخه تحت سطح الماء، وهو يعيش على صغار السمك والحشرات المائية، ومن أنواعه ما يعرف بالغواص الأسود والزهوت والغواص المتوج، ويستعمل جلده في صناعة الفراء.

ومن الأنفقنويات الطير المعروف بجلم [2] الماء، وسمي بذلك لأنه في أثناء طيرانه فوق سطح البحر يرى كما لو كان بجلم الماء، أي يجزه جزاً دون أن يحرك جناحيه تحريكاً ظاهراً، ويعرف أيضاً باسم طائر النوء؛ لأنه يحلق في أشد الأجواء هياجاً، وهو قل أن يقترب من اليابسة، وموطنه البحر الأبيض المتوسط من جبل طارق حتى شواطئ الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة – يرى بالقرب من دمياط، وكثيراً ما يلجئه التعب إلى الاقتراب من أسطح الباخرة والحط عليها، وأنثاه تضع بيضة واحدة كبيرة الحجم تتناوب هي وزوجها مهمة حضانتها حتى يحين موعد فقسها.

ومن اللقلقيات: البجع[3]، وهو منتشر في مصر وبخاصة في شهر نوفمبر في الفيوم ومنطقة قنال السويس وعلى ضفاف النيل، وهو طائر

---

(1) Grebe

(2) Shearwater.

(3) Pelican.

كبير الحجم يعيش في جماعات، له كيس كبير عند الحلق كأنه الحوصلة يخزن فيه كميات كبيرة من الغذاء الذي يتفنن في جمعه؛ ولذا سمي بالحوصل، ريشه أبيض مشوب بلون وردي خفيف، ومنقاره أصفر تخالطه بقع زرقاء، وكيس الحلق والرسغ أصفران، ومنه نوع يفد إلى مصر شتاء، ويمتاز عن السابق بتقعر الجبهة ولون الريش المائل إلى البني الداكن، ومن أسمائه أيضاً القوق وجمل الماء وجمل البحر وأبو جراب وأبو شنطة وأبو قربة، ومنه صنف أسود اللون كريه الرائحة بخلاف الأبيض، قال فيه الدميري صاحب كتاب حياة الحيوان: إن جلده يصنع منه بعض الفراء، ومن الطريف أن بعضهم قال فيه ملغزاً:

مـــا طــــائر فـــي قلبـــه ... يلـــــوح للنـــــاس عجــــــب

منقـــــاره فــــــي بطنـــــه ... والعـــين منـــه فـــي الـــذنب

إشارة إلى هيئته وهو واقف.

ومن أفراد هذه الرتبة أيضاً الطائر المعروف بالأطيش[1]، وهو من الطيور المائية التي تستوطن شواطئ مصر، وهو في حجم البطة، أسود لون الرأس والعنق والظهر، أبيضه عند الصدر والبطن وأسفل الذنب، يشاهد بكثرة على شاطئ البحر الأحمر ويعيش على صغار السمك.

[1] Booby سمي بالأطبش، لما عرف عنه من الطيش وبلادة الطبع حتى ليشاهد على أسطح السفن والبواخر فلا يبرحها حتى يمسكوا به.

ومنها أيضاً قاق الماء[١] هو من الطيور البحرية أسود اللون طعامه السمك، ومن أسمائه المألوفة غراب الماء، وغراب البحر، وهو زائر مقل، لا يرى شتاء إلا نادراً وعلى الساحل الغربي من الإسكندرية، ومنها الطائر المعروف بمالك الحزين[٢]، وهو من طيور الماء كذلك، طويل العنق والساقين، ومن طيور مصر الأوابد، ومنه السنجابي والأرجواني والجبار وأبو قردان[٣] وغراب الليل والأبيض اليقق[٤]، وهذا النوع الأخير قل أن يرى في مصر، أما السبب في إطلاق اسم مالك الحزين عليه فهو أنه على ما زعموا يقعد بالقرب من مياه الجداول والغدران وغيرها، فإذا جفت أو غاضت استولى عليه الحزن وبقى يائساً كئيباً، وأبو قردان أحد بني عمومة مالك الحزين وصديق الفلاح الحميم، بسبب ولعه الشديد بالتقاط الديدان من المزروعات، كان قد اختفى من البلاد بسبب اعتداء الأهلين المتوالي إلى أن صدر قانون سنة ١٩١٢ وبسط حمايته عليه، بأن أنذر بالعقاب الرادع كل من يتصدى له بالأذى، فعاد إلى الظهور والانتشار في جميع أنحاء القطر حتى الواحات، وكثيرا ما يخطئ البعض فيخلطون بين Heron وJbis فيسمون هذا النوع بالاسم الأخير، وهو خطأ لا مبرر له، كما سوف يجيء، أما غراب الليل[٥]، فمن طيور مصر الأوابد أيضاً، وهو ذو منقار أسود مائل إلى الخضرة.

---

(١) Cormorrant.

(٢) Heron.

(٣) Buff – Backed heron.

(٤) الناصع البياض.

(٥) night Heron.

ومن اللقلقيات الطائر الذي يعرف بالعنز أو اللقلق الأبيض[١]، وهو طير مائي طويل الساقين والعنق، له منقار طويل معقوف كأنه المنجل، ويتغذى على السمك والحشرات ويهاجر من الشمال جنوباً أيام الخريف، ثم يعود إليه ثانية في الربيع، فهو من القواطع التي لا تتزاوج قط في مصر، ومن فصيلة أبو منجل الناسك، وكان كثير الانتشار في مصر القديمة، واشتهر فيها باسم أيبس، وكان موضع التقديس من أهلها كما تنطق بذلك النقوش العديدة التي مازالت تحلي جدران المقابر والمعابد المصرية، وثم من نفس النوع اللقلق الأسود الذي قل أن يشاهد في مصر، وأبو ملعقة وهو أبيض لون الريش، وأبو منجل الأسود الذي ينتشر شتاء في أنحاء الوادي وبخاصة ناحية وادي النطرون.

ومن هذه الرتبة أيضاً الطير المعروف بالنمام[٢]، وهو طير مائي على هيئة الأوز، يعيش على الحيوانات القشرية والرخوة، وعلى النباتات المائية والطحالب، وهو كثير الوجود في بحيرات مريوط والمنزلة والبردويل وفي وادي النطرون وأنحاء الفيوم، طويل العنق والساقين، أعقف المنقار أسود طرف الجناحين وسائره وردي اللون، وهو يعرف في مصر باسم البشروش، ومن السهل التعرف عليه من هيئة طيرانه، إذ أنه يمتد برجليه إلى الخلف في خط مستقيم وعنقه إلى الأمام على امتداد ذلك الخط.

---

(١) Ibis

(٢) Flamingo

ومرتبة الوزيات تشمل كل أنواع الأوز والبط، وهي كثيرة معروفة، وتمتاز بشكل منقارها وثقل حركتها، فمن الأول الأوز الأبيض الجبهة[١] والأوز الأربد [٢] والأوز الأسود [٣] والأوز المصري [٤]، ومن الثاني البلبول [٥] والحذف [٦] بأنواعه والبُركة [٧] بضم الباء والسماري، وهناك الأوز العراقي[٨] وهو شبيه بالأوز غير أنه أطول منه عنقاً.

ومن رتبة الصقريات الطيور الجوارح، وهي لا تظهر إلا نهاراً مثل العقبان والصقور والنسور والحدآت وغيرها، وتتميز بانعقاف أطراف مناقيرها وقوة إقدامها وشدة مخالبها التي تستعملها في الفتك بفريستها، فمنها الرخمة المصرية وهي ما تعرف في كتب اللغة بالنسراء [٩] الأنوق، وهو طائر أبقع أي فيه سواد وبياض، أصلع الرأس أصفر المنقار، وكان قدماء المصريين يرمزون به إلى معنى الحنو والحنان.

ويقول الدميري: إن في الرخمة أربع خصال: أن تحضن بيضها وتحمي أفراخها وتألف ولدها ولا تمكن نفسها إلا لزوجها، والنسر كما

---

(١) White –Fronted goose.

(٢) Grey goose.

(٣) Bean goose.

(٤) Pintail.

(٥) Teal.

(٦) Wild Duck.

(٧) Godwall.

(٨) Swan.

(٩) Egyptian Vulture.

جاء في أقرب الموارد أفصح الطيور وأشهرها، حاد البصر رفيع الطيران قوي الجناح شره نهم، وجاء في المخصص أن الرخمة طائر ضخم أبيض يأكل الجيف ولا يصطاد لنفسه، وهو وإن كان من سباع الطير فإنه ليس من عناقها أي جوارحها، يختار لأعشاشه أطراف الجبال الشاهقة ومواضع الصدوع وخلف الصخور، لكي يعز على الغير الوصول إلى بيضه وأفرخه، ومن أنواعه النسر الأسود(١)، وهو قليل الانتشار في مصر وإن كان من طيورها، وذو الأذن (٢)، وهو أكثر هذه الأنواع انتشاراً بها، وذو الذقن (٣)، وهو أعظم الطيور الجوارح ويرى منتشراً في شبه جزيرة سيناء، وهناك العقاب (٤) وهي من أعظم الجوارح بأساً وأقواها مخلباً، ذات منسم قصير أعقف تصيد لنفسها ولا تقع على الجيف خلافاً للنسر، وهي على أنواع منها الرخماء (٥) والمسيرة (٦) والذهبية (٧) وسيد العقبان (٨) أو ملكها، فالرخماء هي أكثر هذه الأنواع انتشاراً في مصر، وهي بنية اللون في الجزء العلوي، صهبائية فيما دون ذلك، والمسيرة من القواطع، تهاجر إلى مصر في شهر سبتمبر وما بعده حتى الشتاء، وهي أشد الجوارح فتكاً بالحمام والدواجن، أما الذهبية فهي أكبرها حجماً، تفتك

---

(١) Hooded Vultura.

(٢) Sociable Vulture.

(٣) King Vulture.

(٤) Eagle.

(٥) Bald-headed eagle.

(٦) Booted eagle.

(٧) Golden Eagle.

(٨) Imperial eagle.

بالحمل وتخطف الأطفال وتسكن الجبال المحيطة بحلوان والجبال المنبثة في طور سينا، وهي ذات ريش داكن فيما عدا القفا والقنة فلون ريشها فاتح، وأما الساق فذهبية، أما الأخيرة فإنها في جماع مظهرها تبدو كما لو كانت ملكاً حقاً، وإن كان يفرق من الحدأة والغراب ويتحاشاهما لواذاً، وهي أيضاً من القواطع التي لا تزور مصر إلا في أيام الشتاء، تنشد الدفء وحرارة الشمس.

وهناك أيضاً ما يعرف بالعقاب المنسورية (١)، وهي عقاب تألف البحر وتأكل السمك، وتعرف عند العامة بالناسوري أو المنسوري، وهي من الجوارح الأوابد، ويكثر وجودها على شواطئ البحر الأحمر وفي الفيوم، بل هناك أيضاً ما يعرف باسم كاسر العظام (٢)، وعقاب البحر (٣) وهما من القواطع.

وعلى الرغم مما هو معروف من أمر النسر والعقاب، فإننا مازلنا نجد من الكتاب والمترجمين من يخلط بين هذا وذاك، فيضفون إلى الأول نعوتاً وأوصافاً هي من صميم خلال الثاني فيقولون نسور الجو، تنويهاً بقوة بعض الطيارين وجلدهم على الطيران، والصحيح عقبانه – فقد ورد في كتب اللغة قولهم: أبصر من عقاب وأمنه من عقاب، وكانت العقاب راية قريش وراية النبي صلى الله عليه وسلم، كما كانت تنقش على

---

(١) Osprey.

(٢) Lamlergeier.

(٣) Sea Eagle.

بنود الفرس والرومان، فالعقاب هي: رمز القوة ومنعة الجانب والعزوف عن التهام الجيف، وقد قال فيها أبو العلاء المعري:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطبق له عنادا

والعنقاء[١] لفظ كثيراً ما يطلقه العرب على العقاب فضلاً عن دلالته على ذلك الطير الأسطوري الذي كان موضع أوهامهم وخرافاتهم، وقال شوقي رحمه الله مشيداً ببطولة الرائد الأول للطيران في مصر:

أعقاب في سماء الجو لاح أم سحاب فر من هوج الرياح

ومن أفراد هذه الرتبة أيضاً الصقر[٢] وهو طائر من الجوارح مجدول البدن طويل الجناحين عاري الساقين حاد المخالب ومن جنسه اليؤيؤ [٣]، وهو صقر جميل الهيئة صغير الجسم يفرخ في أوساط آسيا ويشتو في مصر والعراق، ويعرف فيهما باسم صقر الجراد، ومنه أيضاً صقر الغزال[٤]، وهو الذي اشتهر في المؤلفات العربية باسم الصقر، والشاهين [٥]، وهو طويل الجناحين أسود الرأس والذنب أبيض الصدر قصير الساقين والفخذين، والصقر الجراح، وهو من القواطع يزور مصر شتاء ويهجرها صيفاً، وهو على هيئة العقاب إلا أنه أقل حجماً وأبطأ طيراناً

---

(١) Phoenix.

(٢) Falcon.

(٣) Merlin.

(٤) Saker Falcon.

(٥) Royal Falcon.

وأوطأ في الجو تحليقاً، وصقر الجراد الإفريقي [١]، وهو من طيور مصر الأوابد بخلاف الصقر الحوَّام [٢]، فإنه من القواطع.. والصقور في مجموعها سود العيون محددة الرؤوس طوال الأجنحة قصار الأرجل بخلاف أبناء عمومتها البراة [٣]، فهي صفر العيون مدورة الرؤوس قصار الأجنحة طوال الأرجل تقتنى لكي يصاد بها، ومن جنسها الباشق والزرق الذي قال فيه أبو نواس ضمن أبيات:

كـأن عينيـه لحسـن الحدقـة ... نرجســة ثابتــة فــي ورقــة

وذلك لتألق عينيه الحمراوين ولمعان رجليه الصفراوين.

وهناك الحدأة السوداء، وموطنها الأصلي أواسط أوروبا وغربي آسيا والعراق ومشتاها إفريقيا وسواحل البحر الأبيض المتوسط عابرة مصر، وهي تختلف عن الحدأة المصرية باسوداد منقارها، وبريش رأسها الذي يضرب إلى اللون السنجابي، ومن جنسها الحدأة السوداء المصرية[٤]، وهي أكثر طيور هذه الرتبة انتشاراً في مصر، فتشاهد في كل مكان ما عدا السواحل والصحراء، وهي من الطيور الأوابد تكاد لا ترى في غير مصر

---

(١) Legged Buzzard.

(٢) Honey Buzzard.

(٣) Goshawk.

(٤) Black Kile.

وتبني عشها من عيدان النباتات التي تجمعها من هنا وهناك في مستهل الشتاء، ثم تعمد إلى الخرق البالية وأوراق الصحف فتبطن العش بها، وتضع نحو أربع بيضات تتناوب هي والذكر حضانتها وفقسها. ومنها الحدأة الحمراء[١]، وموطنها الأصلي فلسطين، وهي قل أن تشاهد في أنحاء مصر باستثناء سيناء والعريش، فقد يشاهد فيهما بعض جموعها. والسقاوة [٢]وهي من أكثر الطيور انتشارًا في الإقليم المصري وبخاصة في الصعيد حيث يأكلون لحمها، وهي من الأوابد وتبني عشها فوق رؤوس النخيل. ومن جنسها العوسق الأوروبي[٣]، وهو من القواطع التي تمر بنا شتاءً.

ورتبة الدجاجيات كما لا يخفى تشمل أجناس الدجاج والتدرج والرومي والحجل والسماني وغيرها، وتمتاز بأنها كبيرة الحجم نوعًا ذات مناقير قصيرة ومخالب قوية مهيأة لفحص التراب واستخراج ما يصلح لغذائها من حبوب وحشرات وغيرها، وذكور هذه الفصيلة أكبر من إناثها حجمًا وأبدع ريشًا وأزهى لونًا – كما أنها شديدة المراس متوثبة للتحدي والعراك، مزاوجة لا تقتصر على واحدة من الإناث، فيرى الواحد منها وقد سار في إثره سرب من الإناث. ولما كان جنسا الدجاج والرومي معروفين لا يجهل أمرهما أحد رأينا أن نتجاوز عن تعريف القارئ بأفراد كل منهما،

---

(١) RedKite.

(٢) Buggord.

(٣) Europcon hcon buggard.

مكتفين بما يعلمه عنها وبما تزدان المكتبة العربية من المؤلفات والمراجع التي تتناول هذين الجنسين بالشرح والتفصيل.

فالتدرج[١] طائر رائع الجمال، موطنه الأناضول والصين، وهو كما يقول الدميري في حياة الحيوان: يسمن عند صفاء الهواء، وهبوب ريح الشمال، ويهزل عند كدورته وهبوب الجنوب، يتخذ مثواه في التراب اللين ويضع فيه البيض حتى لا يتعرض للآفات.

والحجل[٢] أجناس كثيرة تعيش حيث يكثر القمح، والمعروف منه في مصر حجل المغرب، وهو أحمر المنقار والرجلين موطنه الأصلي جزر الكنار وشمال إفريقيا، والطرابلسي والمغربي[٣]، وهذا الأخير أصفر المنقار والرجلين موطنه مصر وجنوب فلسطين، ويعرف في العراق بالقبح. ومن جنسه الطيهوج [٤]، وهو حجل صغير يكثر في الهند وفارس وهو شبيه بالحجل المعروف في مصر، ومنه أيضًا الشنار السينائي وهو من طيور طور سينا الأوابد.

والسماني[٥] وهو من القواطع، يفد إلينا من أوروبا في سبتمبر وأكتوبر ويعود في مارس وأبريل مارًا بجميع أنحاء القطر، وهو أيضًا السلوى الذي أنزله الله تعالى على بني إسرائيل أيام موسى عليه السلام،

---

(١) Pheasant.

(٢) Partridge.

(٣) Sand Partridge.

(٤) Sand Partridge.

(٥) Quail.

من الطيور التي تصطاد بالشباك عند وصوله متعبًا منهك القوى بعد رحلته الشاقة عبر البحر الأبيض، وهو جيد اللحم يأوي إلى الحشائش والنباتات ثقيل الحركة.

وتنتظم رتبة الكركيات طائفة حافلة بالأنواع، كالكركي والتفلق والمرعة والغر ودجاج الماء والحباري وغيرها، وأكثرها لا يعيش إلا بمقربة من الماء. فالكركي [1] بضم الكاف طائر كبير الجرم أغبر اللون أبتر الذنب طويل العنق والرجلين، وهو أنواع كثيرة يزور إقليمنا في فصلي الربيع والخريف فيأتيها في جماعات كبيرة في خطين على شكل رقم ٧، ومنطقة بحيرة مريوط تكاد تكون الوحيدة التي يحد عندها ليقضي أيام الشتاء، ومن طباع هذا الطير التناصر على ما قاله الدميري في موسوعته النفسية التي تقدمت الإشارة إليها، فهو في أثناء طيرانه على النحو المتقدم يقدم على الجماعة واحدًا منها كالرئيس لها تتبعه حينًا ثم يخلفه آخر منها مقدمًا حتى يصير الذي كان مقدمًا آخرها جميعًا، وهو إذا كبر والداه عالهما وتعهدهما بالبر والغذاء.

وقد أشار إلى ذلك أبو الفتح كشاجم حين قال مخاطبًا ابنه:

اتخــذ فــي خلــة فــي الكراكــي　　　اتخـــذ فيـــك خلـــة الوطـــواط

---

(١) Grane.

فإن الوطواط يبر ولده فلا يتركه بمضيعة، بل يحمله معه حيثما توجه. ومن أنواعه الكركي المتوج(١) والسنجابي(٢)، وهي في جملتها جميلة المنظر.

والكركي يعرف في السودان باسم الغرنوق، وقد عرفته مصر في أيام الفراعنة؛ فقد شوهد منقوشًا في جماعات على هيكل الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة وقد شدت مناقيرها إلى أعناقها بالحبال منعًا لها من التقاط الحبوب، ومن جنسه التفلق(٣)وهو من طيور الماء. والمرعة(٤)بضم الميم وهي بحجم السماني. ودجاجة الماء(٥)، وهي من الطيور الأوابد في مصر وديعة هادئة تعوم في الماء وتغطس تحته وتبني عشها بين أعشابه. ثم الغر(٦) وهو من القواطع يزور مصر شتاء ويباع مع مختلف أنواع البط، لذيذ طعم اللحم يعم البحيرات والبرك الكبيرة، ويبني أعشاشه وسط أعشاب الماء النامية. ومنه أيضًا الغرفور(٧)، وهو من الطيور النادرة في مياه مصر قلما يظهر فيعيش مختبئًا بين الأعشاب المائية وهو برونزي ضارب إلى الخضرة. ومن جنسه الفرخة السلطانية (٨)، وكانت كثيرة الانتشار فيما مضى، إلى أن

---

(١) Greaasted Grane.

(٢) Demoiselle Crane.

(٣) Water rail.

(٤) Crake.

(٥) Water hen.

(٦) Common Coot.

(٧) Gallinule.

(٨) Parphyrio.

أصبحت لا ترى إلا نادرًا في أنحاء مريوط، وهي من أجمل الطيور خلقة وأبهاها هيئة، كبيرة الحجم طيبة البيض وإن كان لحمها أقل جودة. والحباري[1]، وهي من الطيور الأوابد في العراق وجزيرة العرب تفد إلى مصر شتاءً. ومن جنسها الحباري العربية والمتوجة وغيرهما.

أما رتبة القطقاطيات، فمنا أبو الرؤوس الصغير[2] وهو طائر صغير يعيش بقرب الماء، لونه من أعلى ضارب إلى السمرة ومن أسفل المنقار إلى البياض، وهو من القواطع فلا يزورنا إلا شتاء، ومن أبو الرؤوس الإسكندري [3]، وهو من الأوابد يبني أفحوصه على الشاطئ، وقل أن يبطنه بالعشب أو نحوه، ثم القطقاط[4]، ومن أسمائه السقساق والزقزاق وطير التمساح، وهو على هيئة الحمام، قال فيه هيرودوتس إنه يدخل فم التمساح وينقبه مما فيه من الدود ثم يخرج دون أن يصيبه أذى، أما السبب في ذلك فهو أن في جناحيه شوكتين هما سلاحه إذا أطبق عليه التمساح فمه وخزه بهما. ومن جنسه قطقاط الرمل الكبير، والقطقاط الذهبي والرمادي، والزقزاق الشامي والزقزاق البلدي. ومن نفس الرتبة قنبرة[5] الماء، وهي مهاجرة تزور مصر خريفًا. ومثلها الدريجة[6]، وهي صغير الجسم على خلقة القطا، وهي من الطيور المهاجرة فلا ترى إلا في

---

(١) Hubara bustar.

(٢) Little winged Plover.

(٣) Kentlsh Plover.

(٤) Spur Winged Plover.

(٥) Turnstone.

(٦) Calidris.

الخريف والربيع. ثم الفطيرة[١]، وهي من طيور الماء الأليفة تعيش بالقرب من البرك والمستنقعات. والمدروان[٢]، وهو طير مائي يمر بمصر في أيام الربيع والخريف في جماعات كبيرة والطيطوى[٣]ومنه الأحمر والأدكن والأرقط والأخضر الساق، وكلها مما يفد إلينا شتاءً. ثم الشنقب[٤] بضم الشين ويعرف عندنا بالبكاسين. ويرى في مصر شتاء في جماعات غفيرة، ولحمه من أجود اللحوم طعمًا. ومن جنسه الشنقب الكبير والشنقب الصغير والشنقب المرقش. ودجاجة[٥] الأرض، وتفد إلى هذا الإقليم شتاءً، وهي تنام نهارًا لتسعى ليلاً بحثًا عن طعامها الأثير من الديدان، ثم البقويقة[٦]، وهي من القواطع أيضًا تشاهد عندنا شتاءً. ومن طيور الإقليم الجنوبي الأوابد كروان الغيط[٧] والكروان الجبلي، وكلاهما أصغر من الكروان الصحراوي[٨] الذي لا يمر يوم إلا ونسمع صياحه العالي بعد الغروب، والكروان طويل الساقين والعنق جاحظ العينين أصغرهما. ومن جنسه الكروان السنجابي، وهو أيضًا من طيور مصر الأوابد غير أنه أصغر من سابقه حجمًا.

---

(١) Little Stint.

(٢) Sanderling.

(٣) Radshank.

(٤) Snipe.

(٥) Woodoock.

(٦) Goduit.

(٧) Common curlew.

(٨) Stone Curlew.

ومن القطقاطيات النورس[1]، أي زمج الماء، وهو طائر في حجم الحمام أو أصغر قليلاً، يرتفع في الجو ثم ينقض فجأة على فريسته في الماء ليختطف منه السمك طعامه الوحيد، وهو من طيور مصر الأوابد فيشاهد بكثرة على سواحل البحر الأحمر، أسود الرأس والظهر بني الجناحين أبيض الذيل سنجابي الصدر. ومن جنسه النورس الزريفي والأسكندناوي والسويدي، وكلها من القواطع التي لا تظهر في مصر إلا شتاءً. ومن جنسه أيضًا الكركر[2] وخطاف البحر[3]، وكلاهما شبيه بالنورس وكثيرًا ما يلتبسان به. ومن نفس الجنس الخرشنة السريع والخرشنة المتوج وأبو بطن، وكلها سريعة الطيران، ويتميز الأول بلوه قدميه الأحمر المرجاني ومنقاره البرتقالي.

ومن القطقاطيات أيضًا القطا[4]، وهي طيور كالحمام تقيم في السهول سريعة الطيران، تقطع المسافات البعيدة في طلب الماء والطعام، وهي تبني أفحوصها على الأرض، كما أنها من طيور مصر الأوابد منتشرة في صحاريها ووديانها، ويصطنع أهل الواحات شباكًا خاصة لصيدها. ومن جنسها القطا المتوج الفلسطيني، والقطا الطويل الذنب.

---

(١) Gull.

(٢) Geager.

(٣) Teru.

(٤) Sandgrause.

ومن نفس الرتبة أيضًا الحمام ([1]) بأصنافه، وهي كثيرة ليس هذا مجالها، ومنها اليمام والقمري، وكلها معروفة لا داعي للإفاضة فيها. ومنها أيضًا الوقواق ([2])، وهو من طيور مصر الأوابد أسود لون الرأس أخضر الظهر بني الذيل أحمر الجناحين. ومنها الببغاء، وهو الدرة ([3])، وهو من الطيور التي لم تعرفها مصر إلا منذ سنة ١٩١٢، ومن ثم استوطنت بها وأصبحت تعد من طيورها أو تكاد، وجميع ريشها أخضر فاقع وبرقبتها طوق رفيع وردي اللون، وقد قال فيها الدميري: إن الدرة تطلق عند العامة على الببغاء الذي نعلمه النطق فيأتي بالعجب العجاب، والببغاء على أنواع كثيرة موطنها جميعًا البلاد الحارة، وتمتاز بمناقيرها الكبيرة وألسنتها السميكة المدببة، وتلك هي آلاتها في لوك بعض الكلمات والجمل ومحاكاة بعض الأصوات كالضحك والتثاؤب والسعال، ومع ذلك فإن أصواتها غليظة لا عذوبة فيها، وتمتاز أيضًا بالذكاء وسهولة التدجين والطاعة، وهي تعيش عادةً في جماعات، وتتغذى على الفاكهة وقل أن تأكل الحشرات أو شيئًا من اللحوم، وقد ذكر بعض العلماء أن فصيلة الببغاوات تحتوي على أكثر من مائتي نوع، أشهرها الببغاء الأربد المعروف بالجاكوه ذو الذنابي الحمراء والعينين الذهبيتين والمنقار الأسود، وأكبر هذه الأنواع حجمًا هو المعروف بالماكاو أو الكوكاتو، وموطنه الأصلي جزر الأنتيل وطوله نحو المتر،

---

(١) Dove.

(٢) Cuckos.

(٣) Parrot.

وهو وإن كان بطيئًا في تعلم الكلام إلا أنه متوقد الذهن جم الذكاء يعبر عن مشاعره بالتودد والملاطفة، أما النوع المعروف بالبرازيلي فلا يزيد طوله على خمسة عشر سنتيمترًا، ولونه أخضر مشوب بالزرقة المنتشرة على كل من الظهر والجناحين.

ومن هذه الرتبة أيضًا الطائر المعروف بالضؤضؤ (١) أو الغراب الزيتوني أو الشقراق، وموطنه الهند والعراق وجزيرة العرب. ومن جنسه الشقراق الحبشي، وهو من الأوابد في وادي حلفا. ومن نفس الرتبة الطائر المعروف بطير السمك أو القرلي (٢)، وهو من أوابد مصر يحط على شواطئ القنوات باحثًا عن السمك طعامه الأثير، وهو طويل المنقار أسوده قصير الرجلين أسودهما أبيض الصدر مرقط الظهر والذنابى– ومنها أيضًا الوروار (٣) وهو من القواطع يمر بمصر في الربيع والخريف ولونه تغلب فيه الخضرة، وهو قصير الرجلين طويل المنقار أسوده، وهو أنواع كثيرة منها الوروار العراقي الوروار المصري (٤) والوروار السوداني، تحبه العرب وتتيمن به. ومنها الهدهد الكبير (٥)، وهو من الأوابد فوق قنته قنزعة عليها خطوط عرضية سوداء ويكنى بأبي الأخبار. ومنها البومة (٦)، وهي من كواسر الليل تظهر في أيام الربيع. ومن جنسها المخططة

---

(١) Roller.

(٢) Pied Kingfisher.

(٣) Bee- eater.

(٤) Little gresa bee – eater.

(٥) Hoopoe.

(٦) Owl.

والهامة والمصاصة ([١])، وهي من طيور مصر الأوابد. ثم البعفة والصدى والبومة الأذناء والصمعاء وأم قويق ([٢])، وهي من الأوابد وتعيش على الطيور الصغيرة والفراشات والحيوانات الثديية الصغيرة والسحالي، ونعيب البوم جميعًا، يتطير منه ويؤخذ على أنه نذير شر والعياذ بالله، ولعل ذلك راجع إلى سكناها الأماكن الخربة المهجورة.

ومن نفس الرتبة الطائر المعروف بالسيد المصري ([٣])، وهو من طيور مصر الأوابد ويعرف بأبي النوم، يطير في الغسق أو ليلاً، أغبر الريش أو مخططه مسرول الساقين مفلطح الرأس والمنقار، ومن أسمائه الضوع وهو كالبومة قال فيه الأعشى يصف فلاة:

لا يسمع المرء فيها ما يؤنسه ... بالليل إلا نئيـم البوم والـضوعا

ومن جنسه السَّبَد الصحراوي والسبد الأوروبي. ومن نفس الرتبة السمامة ([٤])، وتعرف أيضًا بالخطاف الجبلي، وهي من الأوابد سريعة الطيران، وتطير في جماعات كبيرة طيرانًا متموجًا سريعًا وتعيش على الحشرات. وهناك أيضًا اللواء ([٥])، وهو من القواطع يلوي برأسه طويل الرجلين أدهس اللون هزيل الجسم.

---

(١) Barn owl.

(٢) Little owl.

(٣) Nightjar.

(٤) Swift.

(٥) Wryneck.

العصفوريات والطيور المغردة

الآن وقد انتهينا من هذا العرض الخاطف الذي تناول أكثر رتب الطيور، بقي علينا أن نلم إلمامًا بالرتبة الباقية من ذلك العالم الزاخر بالحيوية والنشاط، وأعني بها رتبة العصفوريات أو الجواثم أو الطيور المغردة كما يطلق عليها أحيانًا، وهذه الرتبة تشمل فصائل عديدة، منها العدالب والكنار والبلابل والغربان والقنابر والعصافير وغيرها، وعدد أفرادها وحدها يربو على أفراد الرتب المتقدمة مجتمعة، ولمصر منها نصيب كبير منها، كما أن عددًا غفيرًا من الباقي يفد إليها ليمضي بها أيام الشتاء أو الصيف.

وأهم أجناس فصيلة العدالب هو العندليب ([1])، ومن أسمائه الهزار، وهو بين أوروبي وآسيوي وإفريقي، وكلها موجودة في مصر وسوريا. ومما يذكر أن الكتب العربية لا تفرق بين الهزار وابن عمه البلبل فتصفهما وصفًا مضطربًا جدًا، من ذلك أن البلبل والعندليب في نظر بعضها هو الهزار بعينه، بل لعلهم كانوا يريدون بالبلبل والعندليب كل طائر حسن الصوت، أغلب المعاجم تترجم Nightingale الإنجليزية وRoasignol الفرنسية بالبلبل وهو خطأ محض. ومن الأوهام الماثلة أن الهزار لا وجود له في الشرق، والحقيقة أن العلامة ترسترام صاحب موسوعة طيور مصر وفلسطين قال: إن الهزار معروف في كل من مصر

([1]) Thrush nightingale.

والشام وبلاد إيران. وإليك بعض ما ورد في الكتب العربية خاصًا بالبلبل والهزار، فقد جاء في لسان العرب أن البلبل يعندل أي يصوت، والعندليب طائر أصغر من العصفور، وقال ابن الأعرابي هو البلبل. وقال الجوهري هو الهزار، وقال الليث هو طائر يصوت ألوانًا وأنشد:

والعندليب إذا زقا في جـنة خير وأحسن من زقاء الدخل[١]

وقال القزويني إنه طائر صغير الجثة سريع الحركة فصيح اللسان كثير الألحان، يسكن البساتين وله مغنى ويوجد أيام الورد. (وهذه صفة الطائر الهزار Nightingale). ويقول المخصص البلبل طائر حسن الصوت يألف الحرم، ويدعوه أهل الحجاز النُغر بضم النون، ويقول الدميري النُغر طير كالعصافير حمر المناقير والجمع نغران... وأهل المدينة يسمونه البلبل والهزار العندليب، قال الشاعر:

كالصعو[٢] يرتع في الرياض وإنماحبس الهزار لأنه يـــتكلم

ومما تقدم يتضح، أن العرب أطلقوا اسم البلبل على كثير من الطيور الحسنة الصوت، ومنها الهزار وأبو هرون، وأن اللبس الذي وقع فيه المحدثون ناشئ من هذا الخلط، والصواب هو أن البلبل وهو طائر أسود اللون ضارب إلى الحمرة حسن الصوت يقابله في الإنجليزية لفظ bulbul، وأن من جنسه البلبل المصري وهو من الطيور المقيمة في مصر

(١) Spectacled Warbler

(٢) Fire- Cnested Wren

ومن أرخمها صوتًا، وهو يعم الحدائق والمناطق المزروعة، ويتغذى على الثمار والفاكهة ويبني عشه في أعلى الأشجار. ومنه أيضًا البلبل السوري، وهو كالمصري، ويوجد أيضًا في شبه جزيرة سيناء، ومن مرادفاتها لفظ العندليب.

ومن الكناريات الطائر المعروف بالنغر ([1]) بضم النون المتقدم ذكره، ويعرف أيضًا بالنعار أي الصياح، وهو طير حسن الصوت، ومن جنسه عصفور الكنار ([2]) والنغر الأوروبي والنغر الشامي، والأول موطنه جزر الكنار وهي الخالدات.

ومن الخطاطيف ما يفد إلى مصر ربيعًا وخريفًا وأحدها خطاف ([3])، وهو طائر يصيد الحشرات التي يلتقطها في أثناء الطيران، ومن أهم مميزاته ذيله المشقوق ولونه الداكن، ومن أسمائه السمامة بالفتح، ومن جنسه الطائر المعروف باسم عصفور الجنة ([4])، وهو من طيور مصر الأوابد يشبه الخطاف في شكله العام، ويبني عشه من الطين، ومن أسمائه السنونو ووروار الهند، ومن جنسه السنونو الباهت، وهو من الطيور الأوابد يعيش في وادي النيل والواحات الخارجة والداخلة ومنطقة الفيوم والبحر الأحمر، ومن جنسه أيضًا خطاف الشواهق وخطاف الشواطئ وسنونو البحر الأحمر.

([1]) Serin

([2]) Canary

([3]) Swift.

([4]) Swallow- Paradise Bird

ومن الغرابيات الغراب النوحي ([1]) أو الأسحم، وهو من طيور مصر الأوابد، يقيم في صحاريها، ولا يغشى منطقة البحر الأبيض، وإن كان يرتاد سواحل البحر الأحمر، ومن جنسه الغراب أوبرنس وهو لا يلج الصحراء قط، والأغرب أن الجنسين قد يلتقيان عند الحدود التي تفصل الصحراء من الوادي، ومع ذلك فلا يعتدي أحدهما على منطقة نفوذ الآخر، والغراب الأسحم يبني عشه في الوديان البعيدة وعلى قمم الجبال، ومن عاداته شدة الحذر والتوقي، وهو على شيء كبير من الذكاء وسعة الحيلة، فقد قيل إنه عطش ذات مرة، وكان على مقربة منه جرة في أسفلها قليل من الماء، فما كان منه إلا أنه أخذ يلقي ببعض الحصوات داخل الجرة حتى ارتفع منسوب الماء وأخذ يحتسي منه ما شاء. ومن جنسه الغراب المروحي الذنب، الذي يستوطن جنوب سيناء، والغراب الأبقع وغراب البين والزاغ والغداف وغراب الزرع.

ومن القنابر المكاء ([2]) بضم الميم وتشديد الكاف، وهو طائر ذو صفير حسن وتصعيد في الجو هبوط منه، وهو في أثناء ذلك يمكو أي يصفر، ومن أسمائه الأخرج ومن جنسه القبرة بالضم والتشديد، والقنبرة المغربية، وهي من الأوابد، والقنبرة الكبيرة وهي من القواطع بيضاء تحت الجناحين، والقنبرة القصيرة الأصابع وهي من الأوابد، وقنبرة الصحراء والقنبرة المتوجة وهي حسنة الصوت تفترس حشرات المحاصيل؛ ولذا

([1]) Raven Crow.

([2]) Lark.

حرم صيدها كما حرم صيد غيرها من الأنواع التي تتغذى على ديدان الزرع وما شابهها.

ومن الفتاحيات الجشنة (١) الصفراء بالضم، وهي من القواطع، ومن جنسها جشنة الشجر، وهي طير أليف يزحف بين الأعشاب وتحط على الأشجار، وهي أيضًا من القواطع. ومنها الجشنة الحمراء الحنجرة، وكلها سوداء اللون، ومن جنسها أبو فصادة (٢)، ويعرف أيضًا بالذعرة بالضم ثم الفتح، وهو طائر صغير يكثر من تحريك ذنبه، ويعرف في سوريا باسم أم سكعكع من القواطع، ويفد إلينا بكثرة في الربيع والخريف ويتغذى على الحشرات، ومن جنسها الأزرق الرأس والأصفر والأبيض والرمادي والأشهب والأسود والروماني.

ومن الدخليات السكسكة (٣) وتعرف أيضًا بالصعو، وهو أصغر جنس العصافير حجمًا، ويعرف في سوريا بالسكسوكة، له حركات دائمة وهو لا ينقطع عن السكسكة أي الصفير، وهذا العصفور خلاف الطائر المعروف بالسقساق (٤) بالفتح، ويعرف أيضًا باسم القطقاط ورسول الغيث. ورسول الغيث، والسكسكة أنواع منها الخنشع بالفتح، وهو من الطيور القواطع، والهازجة (٥) وهي من الطيور المقيمة كثيرة الصياح

(١) Pipet.
(٢) Wagtail.
(٣) Wren.
(٤) Plover.
(٥) Werbler.

والشقشقة تبني عشها حول سيقان النبات، والفصية بالضم، وهي من الأوابد ترفرف بجناحيها قبل أن تنتقل في طيرانها من مكان إلى آخر وهي ذات ذيل مروحي أو طويل.

ومن الشوكيات عصفور الشوك (١)، وهو لا يظهر في مصر إلا شتاءً وأكثر مأواه السياج، وقد زعم أرسطو أن بينه وبين الحمار عداوة؛ لأن الحمار إذا كان بجلده أذى حكه في الشوك الذي يأوي إليه هذا العصفور فيقتله، وربما نهق الحمار فتسقط فرخه أو بيضه من جوف الوكر، وهي خرافة كما ترى.

الدخلة (٢) بضم الدال وتشديد الخاء، وهي تفد إلى مصر في الربيع ذات ذيل طويل تحركه إلى الأمام، ومن جنسها الدج بالضم (٣)، وهو حالك السواد يزور مصر شتاءً، اجتماعي يتغذى على ما يلتقطه من الأرض، والسمنة (٤) بضم السين، ومنها المطرية وسمنة الدبق.

ومن الأبالق أبو بليق (٥) وهو يزور مصر في الخريف، ومن جنسه أبلق البادية، وهو من الأوابد، والأبلق الحزين والأبلق الأبيض العجز، ومن جنسه أيضًا الحمراء وهي من القواطع ومثلها أبو الحناء.

---

(١) Hedge sparrow.

(٢) Warbler.

(٣) Ouzel.

(٤) Thrush.

(٥) Wheatear.

ومن الصردية الصرد (١) بالضم، وهي من القواطع ومنها صرد البادية والنهس. ومن التميرية تمير وادي النيل (٢)، وهو بحق من أصغر الطيور حجمًا وأجملها صوتًا يمتص التمر والزهر كما يمتص النحل الرحيق، ويشاهد فوق أراضي الوادي، ومن جنسه التمير الحبشي والتمير العربي والفلسطيني والنيلي. وموطنها جميعًا وادي النيل، ويعرفه العامة باسم أبي الريش.

ومن العصفوريات البلبل الزيتوني (٣)، وهو من زوار مصر شتاءً قصير المنقار كبير الجسم بالنسبة لباقي العصافير، ومن جنسه العصفور الخضيري (٤)، وهو من القواطع، والحسون (٥) ويعرف عندنا بأبي زقاية، وهو من الأوابد يغرد في الربيع والصيف تغريدًا حسنًا، ولونه خليط من الحمرة والصفرة والبياض والسواد والزرقة، ومن جنسه العصفور التفاحي، ويزور مصر شتاءً والعصفور النعار وهو في حجم الكنار، والزمير المصري (٦)، وهو من الأوابد، ومن جنسه العصفور الوردي والعصفور الظالم وعصفور الصخر والعصفور المخطط، ثم عصفور النيل وهو من الأوابد، وعصفور الدور الفلسطيني والإسباني والإيطالي وهي من القواطع.

---

(١) Shrike.

(٢) Sunbird.

(٣) Hawfinch.

(٤) House Sparrow.

(٥) Goldfinch.

(٦) Bulfinch.

على أن المركز الجغرافي الممتاز للجمهورية العربية المتحدة واعتدال جوها صيفًا وشتاءً وانتشار مزارعها ووفرة كلئها وسهولة أرضها وملائمة مناخها، جعلتها محطًا ومستراحًا للكثير من الأنواع الأخرى للطيور التي لم يوفق إلى مشاهدتها، والترجمة لها العلماء الأخصائيون المتقدمون، مما كان ولا يزال سببًا في عدم الإحاطة إحاطة جامعة بكافة الطيور القواطع التي تفد إلينا لواذًا من صبارة الشتاء وحمارة الصيف اللتين تستهدف لهما هذه المخلوقات الرقيقة في مواطنها في شمال المعمور وجنوبه.

رطباع الطيور

اختلف الباحثون وعلماء الحيوان في ذلك فقال البعض: إن ما يصدر من الطيور من مختلف الحركة والسكون، وما يند عنه من اصطناع الحيلة والابتكار إنما هو بإثارة من الذكاء والتعقل، وحافز من أعمال الفكر وحسن التدبر، ثم ساقوا الأمثلة التي لا تحصى تأييدًا لحجتهم وتدعيمًا لقولهم، فذكروا تلك القصة المعادة، وأعني بها حديث الغراب والجرة الذي سبقت الإشارة إليه، وحديث دجاجة الماء (١) التي شاهدت في ذات يوم دراجة (٢) كان قد عني باقتنائها أحد هواة الطير، فوضع لها الحب الذي تتغذى عليه في صندوق ينفتح تلقائيًا إذا حطت الدراجة على القضيب المتصل به وينغلق إذا شالت، وهنا سولت النفس لدجاجة الماء أن تختلس شيئًا من هذا الحب، فحطت بثقلها على القضيب كما كانت تفعل الدراجة ولكن الغطاء لم يتحرك، فأخذت تطير عن الصندوق ثم تنقض عليه، ولكنه مع ذلك لم يستجب لها، وعن ذاك أدركت أنها أخف وزنًا من الدراجة، فطارت بعيدًا ثم عادت بعد برهة ومعها طائر من جنسها فحط الاثنان فانفتح الغطاء ونالا من الحب ما يشتهيان، ثم حديث الأوزة التي كانت تقود صاحبتها العمياء في الطرقات المزدحمة، وقد شد منقارها إلى طرف عصا طويلة وأمسكت العجوز

(١) Moorhen.

(٢) Partridge.

بالطرف الآخر حتى لا يفلت منهما الزمام ويضيعا وسط الزحام. وحديث السوادية ([1]) التي تخيط بمنقارها ورقتين من ورق الشجر حتى تكونا معًا على هيئة الكيس فتسكن فيه صغارها، ثم حديث الحجلة ([2]) إذ ترفع جناحها أمام الكلب الغادر كأنها مجروحة لا تستطيع حراكًا، ثم تطير فجأة إلى وجهه محاولة أن تفقأ عينيه أو تناله بأذى يبعده عنها وعن بنيها. ثم حديث الأوز البري الذي يقطع المسافات البعيدة في خطين منفرجين كساقي المثلث، فتطير واحدة منها في مقدمة السرب، فإذا أصابها الإعياء تأخرت قليلاً إلى الوراء وأخذت مكانها الأوزة الأخرى، وهكذا تقوم كل واحدة بالقيادة في نوبتها دون أي خلل أو ارتباك. وغير هذا وذاك من القصص والنوادر التي جرت بها الأقلام ولا يعوزها الصدق أو السند الصحيح.

وقد علل الباحثون والعلماء هذه الظاهرة بأنها راجعة إلى الزكانة والعقل اللذين تستدعيهما سعة أدمغة هذه المخلوقات، فهي عالية إذا ما أخذنا في الحسبان نسبة هذه الأدمغة إلى جسومها الصغيرة، فقد دل البحث العلمي على أن هذه النسبة في عصفور الكنار $\frac{1}{4}$ ، وفي الديك $\frac{1}{25}$ ، وفي العصفور الدوري $\frac{1}{25}$ ، وفي أبي الحن $\frac{1}{32}$ ، وفي الشحرور $\frac{1}{62}$ ، وفي البطة $\frac{1}{256}$ ، وفي النسر $\frac{1}{260}$ ، والأوز $\frac{1}{360}$. أما الإنسان فنسبة دماغه إلى جسمه تختلف من $\frac{1}{22}$ إلى $\frac{1}{32}$ ، ومع ذلك فنحن

(1) Ganraet.

(2) Partridge.

نخطئ إذا أردنا البحث عن طبائع الحيوان حين نقابل بنيتها ببنيتنا فندعي أنها دوننا، مع أن كلا من الفريقين كامل بالنسبة لنوعيته، وإلا فماذا نقول في الأوزتين اللتين شهدتا معركة بين ديكين فلم يسعهما إلا أن يصيحا ويجلبا كأنهما تستنجدان بمن عساه يفض هذا العراك، فلما لم يفد صياحهما أخذتا تنقران الديكين وتجذبانهما إليهما حتى انفصل المتبارزان ووقف النزال.

على أن مسألة ذكاء الحيوان كانت قديمًا مثار مناقشات عديدة، إلى أن جاء الفيلسوف الفرنسي ديكارت، فأنكر بتاتًا أن الحيوان متمتع بشيء من الذكاء قائلاً: إن فعالها آلية محض لا أثر لأعمال الفكر فيها، فلما طلع دارون بعد ذلك بنظرياته في النشوء والارتقاء، وشايعه عليها أمثال لامارك واتيين جوفردا وغيرهما؛ تغيرت النظرة إلى موضوع ذكاء الحيوان قائلين: إن ما يعرف من قوة الذكاء في الإنسان لا بد أن له أصلاً في الحيوان حتى في أحطها مرتبة وأبسطها تركيبًا، وأن هذا الأصل قد لحقه التطور والترقي مع ما لحق الحيوان منهما حتى وصل إلى ما وصل إليه الإنسان. وغالى العلامة أرنست هكل حين قال: إن أصول المدارك الإنسانية موجودة في أبسط أنواع الحيوان حتى الأولية منها، أي التي تتكون من خلية واحدة، وأيًا كان تضارب الآراء وتطورها فالرأي المعول عليه اليوم هو أن مظاهر الذكاء تشاهد فعلاً في الحيوان، وإن كانت أقل قوة مما لدى الإنسان. وقد استدلوا على ذلك ببعض المشاهدات التي تقدمت الإشارة إليها.

ولعل من آثار هذه الفطنة ولا أقول الحكمة، ما يشاهد من آيات التعاون والتساند بين أفراد عالم الحيوان بعضهم لبعض، فالفصائل فالرتب على حد سواء؛ فهي تتعاون على العمل الضروري للمجموع وتتكتل عندما يضطرب الموقف على نحو يدعو إلى الدهشة والاستغراب، فليس منا من يجهل ما يصدر عن النمل من وسائل التعاون والتساند في إقامة بيوته وأهرائه وطرقه وزرعه للحب، وما يصدر عن النحل في بناء الخلايا وجمع العسل وإقامة الحراس على أبواب القفائر إلى آخر ما يأتيه الفريقان من آيات التعاون المؤسس على إشراك المجموع في سبيل نفع المجموع.

وليس من يجهل أيضًا أن الحواصل وهو البجع يجتمع في وسط الماء على هيئة عصابات في أنصاف دوائر، ثم يتقدم أفراد العصبة جميعًا نحو البر مضيقين حلقتها شيئًا فشيئًا إلى أن يصيدوا كل ما فيها من السمك كما يفعل الصيادون. وقد تقف عصابة أمام عصابة أخرى وكل منهما في شكل نصف دائرة وتتقدما رويدًا رويدًا وهما متواجهان، وكل منهما تضيق حلقتها إلى أن يجتمعا في دائرة محصورة وتصيد كل ما وقع فيها من سمك.

والكراكي لا تطير متفرقة، وإنما في جماعات متراصة يتقدمها واحد كالرئيس عليها وهي طائرة في إثره إلى أن يخلفه آخر منها مقدمًا عليها، وهكذا حتى يصير الذي كان في المقدمة في المؤخرة. وغني عن الذكر أن مثل هذا التعاون والتساند خليق أن يتيح لصغار الطير الغلبة مجتمعة

على كباره، فصغار البواشق تجتمع على الكبير من النسور وتزاحمه على صيده من الجيف، وكذلك تفعل صغار الطير في الأفعى حتى تطردها شر طردة.

وجنس الببغاء أقوى تعاونًا وأكثر ترابطًا من الأجناس الأخرى، فمن ذلك أن عصائبه تختار مكانًا تسكنه فتخرج منه كل صباح في طلب الرزق دون أن يفارق بعضها بعضًا، فإذا دخلت حقلاً أو نحوه أقامت منها حراسًا عليها تستمع إلى تحذيراتهم وأوامرهم ونواهيهم، فإذا دنا منها عدو هبت كلها وهربت لواذًا إلى مساكنها، وقد تقصد إليها أنواع أخرى من الطير وتقيم عندها على الرحب والسعة.

ومما يذكر استطرادًا أنه لو تصادق ببغاوان وائتلفا ثم مات أحدهما فإن الآخر لا يلبث أن يموت حزنًا عليه ولو كانا من نوعين مختلفين. إن مثل ذلك التعاون هو الذي جعل جنس الببغاء في مأمن من أعدائه، حتى لقد قال بعضهم: إنه لا عدو للببغاء إلا الإنسان، ولعله السبب أيضًا في إذكاء مداركه حتى أشبه الإنسان في كثير من أمره.

وما كان لنا أن ننسى الإشارة إلى تعاون الأزواج من الطير على احتضان بيضها مناوبة وتربية صغارها حتى تشب عن الطوق، ولا أن ننسى ما يتجلى من أسرابه عند قطعه المسافات السحيقة، من إقامة الحراس والرواد لتهديها السبيل في المفاوز وتنبهها إذا ما استهدفت لشيء من المخاطر، الأمر الذي يعرفه الصيادون فيبدأون بالتصويب على الدليل أو الحارس إلى أن يردوه قتيلاً فيصبح السرب بعد ذلك لقمة

سائغة بين أيديهم، بل لقد قيل إن كبار الطير تحمل صغاره أثناء طيرانها البعيد المدى، ومن ثم نخلص إلى القول إن التعاون فطري في الحيوان ولاسيما في الأنواع الدنيا منه، وإنه كلما ارتقت طوائفه صار التعاون فيها خاضعًا لحكم الضرورة.

ومع التسليم جدلاً بأن الطير يتمتع بمظاهر الذكاء والتعاون على النحو الذي تقدم، فإن ما عرف عنه من أن أسرابه وعصائبه تخضع عادةً لزعامة واحد منها، لا تخالف له أمرًا ولا نهيًا، يدعونا إلى التفكير مليًا في كيفية تمتع هذه المخلوقات بهذا اللون من التقدير لفرد بعينه يرقب حركاتها وسكناتها، وتتركه بنفس راضية مرضية على مقاليد أمورها ومصائرها، وإقامة الحدود فيها، فرد لا بد تتجلى فيه القوة والحزم وينساب في عروقه دم الشباب الحار، ومع ذلك فالويل له إن طغى أو ظهر من بين عصبته من هو أفتل منه ساعدًا، فغلبه على أمره واستلب منه أسباب الزعامة والسلطان، عندئذٍ تقلب له الجماعة ظهر المجن وتسلم إليه قيادها طواعيةً؛ لأنه في نظرها أحق بها من ذاك. فإذا استقرت تحت إمرة زعيمها هذا وعاشت عصابة واحدة متساندة شاعت بينها شبه حكومة شعبية تتولى عامتها تنفيذ قوانينها على نحو ما يشاهد في عصابات الغربان والكراكي والعصافير، فقد أثر عن الغربان أن لها محاكم تلتزم قوانين العدالة والقسط، فمن ذلك ما قيل من أن بعض المهتمين بأبحاث الطير رأى كيف تدور هذه المحاكمات وتنفذ تبعًا لفداحة الذنب أو تفاهته، فقد يكتفون بهدم العش الذي اغتصبه أحدهم ورد المواد المبني منها إلى صاحبه، وقد لا تتجاوز العقوبة توقيع اللوم على المذنب

لما ارتكبه في حق غيره، وقد يعاقبونه بالنفي من عصبتهم وإقحامه في جماعة أخرى سيكون فيها في موضع الزراية والتحقير، وقد قيل إن خطافًا بنى عشًا فرآه عصفور فدخل إليه وامتنع فيه، فلم يسع صاحب العش إلا أن يستغيث برفاقه فحف إليه المئات، وحاولت طرد المعتدي ولكنها لم تستطع، لأنه كان محاطًا بأعواد القش من كل جانب، فلما أعياها أمره رجعت عنه وظن كل من رأى هذا المشهد أن العصفور قد انتصر بمفرده عليها، ولكنها لم تلبث أن عادت والطين يملأ أفواهها فهجمت على مدخل العش فسدته به حتى مات العصفور اختناقًا.

وزعم آخر أنه كان راكبًا أحد القوارب، فشاهد جماعة من الطائر المعروف بمالك الحزين وهو البلشون ترعى في الماء الضحضاح، فاقترب محاذرًا واختبأ وراء شجرة بحيث يراها ولا تراه، وكانت في تلك اللحظة شديدة اللغط والجلبة، وبعد قليل توقفت عما كانت فيه وأخذت تحدق في طائر منها وهو لا يبدي حراكًا، ثم إنها عادت إلى ما كانت فيه من الشقشقة واللغو وبقيت كذلك فترة من الزمان، ثم سكتت فجأة ووثبت على الطائر المسكين ومازالت تنقره حتى قتلته، وليس يشك كل من رأى ذلك أن الطائر المقتول كان قد تعدى على شريعة جماعته فحاسبته ذلك الحساب العسير ثم حكمت عليه بالإعدام.

وقال آخر إنه شاهد حرجة كثيرة الشجر، كانت الغربان تبني أوكارها في أعلى أشجارها ما عدا شجرة منها، فإذا حاول فرخان بناء عشهما فيها نهتها عن ذلك بقية الغربان، وأجبرتهما على التخلي حالاً عنها وبناء

العش في سواها، قال: ثم تبين له بعد ذلك أن أصل الشجرة كان متآكلاً فعصفت بها الريح في صبيحة أحد الأيام، أما كيف أدركت الغربان ذلك فهذا ما لم يعرفه حتى اليوم، غير أن منع بعضها بعضًا من بناء أعشاشها في رأس تلك الشجرة يشعر بأنها كانت تعرف ما يجب عليها عمله ففعلته عن طيب خاطر.

بل ثم نوع من الغربان ذات القنازع، وموطنها جزر شتلاند من مألوف عاداتها أن تتوافد إلى حقل أو فوق تل، وهناك ينتظر بعضها بعضًا أيامًا وليالي إلى أن يتكامل عددها ويحضر كل من يهمهم الأمر منهم، فإذا تم لهم ذلك نحى المجتمعون واحد أو أكثر وأقامت عليه حراسًا حتى لا يتمكن من الهرب، ثم يشرع الباقون في النعيب والنعيق جماعات فترة من الزمان تنقض في نهايتها على الطائر المتهم ولا تزال تنقره بمناقيرها حتى تمزقه شر ممزق ثم يعود كل منها من حيث أتى، وما من شك في أن الطائر المسكين كان قد أتى مكفرًا، وأن الجماعة كانوا منه بين قضاة ومحامين وشهود ومنفذين للعقوبة، بل لقد زعم أحد قساوسة الإنجليز أنه كان ممتطيًا يومًا جواده، وإذا به يسمع نعيبًا عاليًا صادرًا من مجموعة من الغدفان وهي الغربان التي تستوطن الجزر البريطانية وغيرها، وقد تحلقت حلقتين منتظمتين الواحدة داخل الأخرى، وفي وسطهما غداف (١) أسحم وكلها تنعق وتصفق بأجنحتها كأن بها حنقًا وشهوة إلى الانتقام، والغداف المحاصر ينعق هو الآخر ويصفق مثلها كأنه يجادلها

---

(١) Rook.

ويحاول إقناعها بطهارة ذيله، وبعد هنيهة تغيرت أحواله فخفض جناحيه ونكس رأسه وأمسك عن النعيب كما لو كان قد أسقط في يده ويطلب الصفح والغفران، وعند ذاك وثب عليه غدفان الحلقة الداخلية وأوسعوه تمزيقًا بمناقيرهم حتى جرت دماؤه وفاضت روحه، ثم إن جماعة الغدفان كلها نعبت نعيبًا متواليًا وطارت إلى حال سبيلها.

وبسبيل ذلك ما يعرف من أن الغدفان مشهورة بالسرقة والسطو على ما ليس لها، فكثيرًا ما تسطو صغارها على أعشاش كبارها وتسرق ما فيها من دقاق العيدان تخلصًا من مشقة جمع القش اللازم لبناء عشها. فإذا عاد أصحاب الأعشاش ووجدت ما حل بأوكارها أخذت تبحث عن السارق حتى تعرفه فتشكو أمرها إلى الجماعة ليقتصوا لها على النحو المتقدم.

وقل مثل ذلك في فصائل العصفور، فإنه إذا تشاجر اثنان قصد المغلوب منهما فشكا ما وقع له إلى جماعته، فتوفد إليه أربعة أو خمسة تنقض على المعتدي وتنهال عليه لومًا وتثريبًا وهي تتواقع عليه حتى ينال منها كفايته، فإذا انتهت من ذلك عادت فعاملته بالرفق كأنه لم يأت ذنبًا.

واللقلق كما هو معلوم شديد الأنفة بالغ الغيرة على عرضه، فقد زعم أحد الجراحين الفرنسيين أن الرغبة استبدت به يومًا لاقتناء لقلق فلم يوفق، وفي ذات يوم عثر على عش لزوجين من ذلك الطائر فاختلس بيضهما ووضع مكانه بيضتي دجاج، وبعد أيام نقف البيض وخرج فرخان من أفراخ الدجاج لا اللقالق، فغاب الذكر عن أنثاه بضعة أيام ثم عاد

ومعه طائفة من بني جنسه حطت كلها وأحاطت بمجثم الأنثى، وجعلت تلقلق وتلغو طويلاً ثم وثبت عليها ومزقتها وقوضت العش ثم رجعت من حيث أتت.

ومن ذلك أيضًا ما رواه أحد المطارنة الإنجليز من أنه شاهد لقلقين وقد بنيا عشهما على مدخنة أحد المنازل، وفي ذات يوم طلع صاحب البيت ووجد في ذلك العش بيضة فاختلسها ووضع مكانها بيضة أوزة، فلما رآها الذكر جن جنونه وطار محلقًا فوق العش ثم غاب عن الأنظار، كل ذلك والأنثى في عشها تربي الأوزة كما لو كانت فرخها، وبعد أيام سمع أصحاب البيت لغطًا شديدًا في حقل بجانبهم فنظروا فإذا جماعة من اللقالق قد تحلقت وأخذت تلقلق بصوت مرتفع ثم صمتت فجأة ووقف واحد منها على بعد نحو عشرين ذراعًا وجعل يصوت كأنه يوجه إليها خطابه، ثم تأخر وجاء آخر مكانه وفعل كالأول، ومازالت تفعل ذلك حتى قارب النهار على الانتهاء، ثم إنها طارت كلها صوب العش وأمامها دليل هو صاحب زوج الأنثى المتهمة التي ظلت ملازمة عشها لا تريم وإن بدت عليها أمارات الخوف والفزع، كأن المسكينة قد أدركت مصيرها المحتوم، فلما دنا الذكر منها دفعها بعنف حتى أخرجها من العش، ثم انقضت عليها اللقالق وعملت فيها وفي فرخ الأوز حتى قتلتهما.

وهذا قليل من كثير مبني على المشاهدة والواقع اللذين ينطقان بأن بعض أنواع الطير أو لعل سائره تقتص من المسيء إذا أساء.

وثمة طيور لا بأس من وصفها بالمحاربة، ولست أعني بذلك أنها محاربة على النحو الذي يفهمه الإنسان ويمارسه بمناسبة وغير مناسبة، وإنما هي صفة من صفات الطير جبلت عليها ولا تحيد عنها، وأعني بها عادتها في فض ما يعترضها من مشكلات فور الوقت، فالجوارح إذا ما أقبلت استعملت مخالبها والجواثم مناقيرها وأرجلها، والببغاوات والعصافير الدورية تعض أقدام خصومها، والبط والحمام تضرب بأجنحتها. وهناك قلة من الطير لا بأس من وصفها بالمقاتلة والعقاب على رأسها جميعًا، فقد كانت الشعار الذي اتخذه قديمًا ملوك الشرق وقادته رمزًا لقوة ملكهم وامتداد سلطانهم ومنعة جانبهم، كذلك اتخذها ملوك آشور وبابل والفرس، ثم سار على نهجهم ملوك الفرنسة والجرمان، ومما يذكر أن العقاب البيضاء كانت قد اختيرت لتمثل بولندا عقب اعتناقها المسيحية في عهد الملك ميكز سلاو في غضون القرن العاشر، ذلك بأنه كان لابد أن يخلي الشعب البولندي جانب إحدى الغابات المهمة استعدادًا للاحتفال بتتويج الملك، وفي تلك الأثناء سقط من إحدى الأشجار الباسقة وكر عقاب بيضاء، كان يضمها ويضم أفراخها، وتسبب عن ذلك هلاك الجميع، أما الملك فقد أثر فيه منظر الدم المتدفق من ذلك الطير وبنيه، وهو محتضن أفراخه في حين كان في وسعه أن يطير لواذًا ويتركها تلاقي الموت وحدها، وفي الحال أمر باتخاذ العقاب البيضاء على الأرضية الحمراء شعارًا لبلاده. وفي القرن الخامس عشر اتخذ إيفان الثالث عاهل روسيا العقاب ذا الرأس المزدوج شعارًا لبلاده المترامية الأطراف وكذلك فعل نابليون ثم الأمريكان عندما استقلوا عن

الحكم البريطاني، وهكذا كانت العقاب على مر الدهور رمزًا للدول المنيعة الجانب العزيزة السلطان.

ويلي العقاب في هذه الصفات الغراب فقد عرف هو الآخر بمنازلة خصومه، حتى لقد اتخذ الرومان من منقاره رمزًا للقوة والبطش.

هجرة الطيور

رأينا فيما تقدم، أن الطيور من حيث الإقامة في مواطنها والترحال عنها بين آبدة وقاطعة، وأن القواطع، وهي المهاجرة تقطع المسافات السحيقة من موطنها الذي تقيم فيه أصلاً إلى إقليم آخر، إما طلبًا للدفء وحرارة الشمس شتاءً، وضربنا المثل على ذلك بوفود السمان والوروار والبط البري. فهي تطالعنا خريفًا لتنعم بأيام الشتاء الدافئة ثم ترحل في أعقاب الربيع عائدة إلى موطنها الأصلي لتمضي فيه أيام الصيف الحارة.

وكذلك تفعل الطيور الاستوائية في مستهل كل صيف لتعود في أدباره إلى مواطنها.

وهذه الطيور إذ تزمع رحلتها الدورية تتوافد جماعات غفيرة في أكتوبر وأبريل من كل سنة، لتبدأ رحلتها الشاقة عبر المحيطات والقارات، قاطعة آلاف الأميال لكي تصل إلى هدفها المنشود، بعد أن يهلك منها ويبقى ما يبقى.

ويعين الطائر على هذه العملية الشاقة اتساع محيط التنفس، الذي يتيحه لها صدرها بتركيبه العضوي العجيب، فرئتا الطير مثبتتان بالجدار الظهري للصدر، وهما أسفنجيتا التركيب، وتتكونان من شعب عديدة متفرعة متشابكة، تنتهي بأنابيب دقيقة مما يجعل السطح ذا اتساع كبير، ويتصل بالرئتين أربعة أزواج من الأكياس الهوائية، فضلاً عن ثلاثة أكياس

أخرى في ناحيتي الصدر، لتساعد كلها على خفة وزن الجسم واتصال معظم الأنسجة بالهواء مباشرة، فتحدث عملية تبادل الغازات على ذلك السطح الكبير، والطيور لا تقطع هذه الأبعاد الشاسعة طلبًا للدفء أو هربًا من الحر وحسب، إنما هي تتحمل مثل هذه المشاق في طلب القوت الذي ستفتقر إليه إذا ما حلت أيام البرد في المناطق الشمالية التي تستوطنها وغطت الثلوج ماءها وأكلت حبها ونباتها، أو حين يشتد أوار الشمس في المناطق الحارة، بل كثيرًا ما تكون الهجرة لحكمة اقتصادية، مثل تخلصها من ضيق الرقعة التي تحتلها وذرياتها المتكاثرة، فتنشد إلى حين أرضًا غير الأرض ووطنًا خلاف الوطن، وقد يكون قصر النهار في أيام الشتاء سببًا من أسباب الهجرة الموسمية، لأنه لا بد يعوقها عن تحصيل قوتها في ظلام الليل، هذا فضلاً عن أن الأشعة فوق البنفسجية التي لها أثر كبير في تكوين الفيتامين (د) أحد مقومات الحياة الجنسية في الطير ينعدم وجودها شتاءً في الأصقاع الباردة، الشيء الذي جعل الإنسان يلتمسه في زيت كبد الحوت، لاحتوائه على قسط كبير من ذلك العنصر الحيوي، أما الطير فلا تجد لها متنفسًا إلا في النزوح إلى بلاد الجنوب، حيث الشمس والدفء ولقد جرب بعضهم احتجاز بعض القواطع في أيام الشتاء ومنعها من الهجرة، فلحقها الهزال والضعف ثم الموت.

ومن الغريب أن هذه الطيور الرحالة تتبع في طريقها إلى الجنوب نفس الطريق التي تتنكبها سنين متوالية، مما قد يكون دليلاً محسوسًا على درايتها بما تقوم به وعلى علمها بطبيعة الأرض التي تجتازها. وأنكر البعض ذلك فقال: بل إن للطيور مجالاً مغناطيسيًا تنجذب إليه بحساسية

مغناطيسية، أي أنها تقوم من نقطة معلومة لتصل إلى أخرى معلومة: تختلف باختلاف أنواعها وباختلاف الأمكنة التي تعيش فيها، بمعنى أنها غريزة فيها متوارثة لولاها لهلكت في أثناء طيرانها على غير هدى.

ومما هو جدير بالذكر، أن الطيور تتبع في رحلاتها جنوبًا طرقًا جوية على خمس مجاميع ضخمة: الأولى تتكون من الطيور التي تنتقل من شمال أوروبا لتحط في أرجاء السنغال في غرب إفريقيا. والثانية تشمل طيور جنوب أوروبا ووجهتها حوض نهر الزمبيري. والثالثة هي طيور جبال الأورال إلى جنوب الهند. والرابعة طيور الهملايا إلى حوض نهر الكنج. والخامسة طيور سيبيريا إلى جزر الملايو. أما ما يفد إلى مصر من هذه المجموعات الخمس فهي طيور المجموعة الثانية، ومعظمها ينتقل إليها من جنوب وأواسط أوروبا ومن بلاد العرب وسوريا، ومن فارس وبلاد الأفغان وبلوخستان والتركستان وما حولها.

وقد دل البحث العلمي على أنه لو استؤصلت الغدة التناسلية لطير ما لما ارتحل عن موطنه؛ لانعدام الحافز الداخلي الذي يدفعه إلى الهجرة، وبسبيل ذلك خصي ذكر من الذكران واستؤصل مبيض أنثاه، فما استجاب أحدهما لداعي الهجرة حتى بعد حلول الشتاء، كما أن عددًا غير قليل من غربان أمريكا الشمالية الرحالة لم تنشط للرحيل خلافًا لمألوف عادتها الموسمية، وبالفحص وجدوا أن غددها التناسلية معطلة لمرض أصابها كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

فوائد الطيور

وللطير فوائد لا تحصى عرفها الإنسان قديمًا وحديثًا؛ فقد استعمل العرب الحمام الزاجل في نقل الرسائل والكتب من بلد إلى بلد، وكذلك استخدمه غيرهم من الأمم في الحروب، وهو لا يزال حتى اليوم يستعمل في هذا الغرض، بل في التقاط صور المكامن التي يختبئ العدو فيها بوساطة آلة تصوير صغيرة خاصة تعلق في قدمه، وكذلك استخدم لعرب الصقر المعروف بصقر الغزال في الصيد والقنص، وذلك بأن يأتي به الفارس فيعصب عينيه حتى إذا ما وقعت عينه على الطريدة أطلقه وراءها، فيندفع نحوها كالبرق الخاطف، ولا يزال بها حتى يفقأ عيني المسكينة بمنقاره فتسقط إلى الأرض منهوكة القوى. ويستخدم أهل الصين غراب البحر وقاق الماء في صيد السمك؛ لأنهما من الطيور التي تتغذى عليه، فيربطون له عنقه بمنديل ويشدونه بحبل طويل ربط إلى قارب الصيد، فيغوص في الماء ثم يخرج منه وفي فيه سمكة، فلا يزالون به حتى يستولوا عليها. والأوز يستخدم في الحراسة كما تستخدم الكلاب.

والكثير من أنواع الطير يتغذى على الحشرات، منها أبو فصادة والهدهد والبلبل وعصفور الجنة وأبو قردان والكروان والزرزور والخطاف والأبلق؛ ولهذا عملت الحكومات المصرية على حمايتها بما سنته من قوانين وفرضته من عقوبات؛ فنحن إذا رمينا عصفورًا من هذه الأنواع فأرديناه وفتحنا بطنه وفحصنا ما فيها جيدًا، وجدنا أن أكثر طعامه من

الحشرات، وقد أحصى بعضهم ما يأكله العصفور كل يوم من الديدان التي تتلف المزروعات، فوجدها لا تقل في المتوسط عن مائة، وهو لعمري عدد لا يستهان به إذا نحن أدخلنا في الحسبان عدد ما يلتهمه الواحد منها في أكثر من ثلاثين يومًا، وهي مدة انتشار الديدان المضرة بالزراعة، فما بالك بالألوف والملايين من هذه الطيور النافعة.

كل هذا بخلاف ما يتخذه الإنسان من ريش الطير من زينة لملابس النساء وقبعاتهن، مثل ريش النعام والطاووس وطائر القيثار والحمامة المتوجة والبرقش وطائر الفردوس وغيرها مما يجل عن الحصر، كما أن من ريش البعض ما يستعمل في صناعة المراوح وحشو الوسائد. هذا فضلاً عن الفوائد المادية والغذائية التي نحصل عليها من اقتناء شتى أنواع الطير والانتفاع ببيضها، وبخلاف دورها في نقل البذور إلى الجزر النائية والأراضي البعيدة عن الصحراء حيث تتكاثر وتزدهر.

ولعلنا لا نغفل بهذه المناسبة التنويه بالأعمال التي قام بها الحمام الزاجل في الحرب العالمية الثانية، فقد استخدم منه ما يزيد على المائتي ألف فرخ في نقل الرسائل العسكرية ذهابًا وجيئة عبر ميادين القتال، وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا وسط أتون من النيران، ومحاطة بالاستحكامات التي لم تستطع الجيوش الجرارة والأسلحة الجبارة اجتيازها، حتى لقد أنعم الكثير من الحكومات على أفراد هذا الطير وجماعاته بالأوسمة والميداليات تقديرًا لبطولتها في خدمة الإنسانية.

الطيور والأساطير

وللطير نصيب الأسد من أساطير الأولين الغابرين وخرافاتهم، حتى لنرى الكثير منها مدونًا باللغات واللهجات التي لاكتها ألسنة البشر قديمًا وحديثًا. فالعنقاء لقيت من اليونان والرومان ومن العرب والهنود والفرس وغيرهم أعظم العناية، في شرح مزاياها ووصف طرق معايشها، وهم يعلمون أن أغلب ما يزعمون – إن لم يكن سائره – من نسج الوهم والخيال الذي لا يمت إلى الحقيقة بأية صلة قريبة كانت أو بعيدة. فزعم أوفيد الشاعر الروماني أن العنقاء لا تعيش كما يعيش غيرها؛ من جوارح الطير كالعقاب، أو من كواسر الليل كالبوم، أو من الجواثم كالعصافير ونحوها فتأكل اللحوم أو الحشرات أو الحبوب والثمار، وإنما تعيش على الكندر واللبان والأصماغ الزكية الرائحة، فما إن يبلغ الذكر سنته الخمسمائة حتى يبني له وكرًا فوق أغصان شجر السنديان أو النخيل، ثم يشرع يكرس فيه أعواد القرفة والناردين والمر على هيئة ركام يجثم فوقه؛ ليلفظ أنفاسه الأخيرة وسط عبير الطيب المتصاعد مع الدخان، وبعد ذلك يخرج فرخا من بين حطام الطير الكبير ليخلفه ويحيا حياته. فإذا كبر واشتد عوده احتمل الوكر الذي يضم رفات أبيه فطار به إلى هليوبوليس من أعمال مصر فأودعه معبد الشمس.

هذا ما قاله الشاعر. أما المؤرخ تاسيت فيزعم أن العنقاء بعد أن اختفت من الوجود أجيالاً متعاقبة، عادت فظهرت في سماء مصر، وقد

أحاطت بها ثلة من أنواع الطير التي أخذت بجلال منظرها وبديع ريشها، ثم يستطرد في وصفها بما لا يخرج عما تقدم.

أما أساطير العرب، فإن ابن الكلبي يقول: إنه كان لأهل الرَّس نبي يقال له حنظلة بن صفوان، وكان بأرضهم جبل مصعده في السماء ميل، وكانت تنتابه طائرة كأعظم ما يكون، لها عنق طويل وفيها من كل لون، وكانت تقع منتصبة، فكانت على ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكله، فجاعت ذات يوم وأعوزتها الطير، فانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغرب، لأنها تغرب على كل ما أخذته أي تبعده؛ فشكوا ذلك إلى نبيهم فقال: اللهم خذها واقطع نسلها وسلط عليها آفة، فأصابتها صاعقة فاحترقت.

وروى القزويني أن العنقاء أعظم الطيور جثة وأكبرها خلقة، تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر، وأن عمرها ألف وسبعمائة سنة، وأنها تتزاوج إذا أتى عليها خمسمائة عام، فإذا حان وقت بيضها يظهر بها ألم شديد، فيأتي الذكر بماء البحر في منقاره ويحقنها به فتخرج البيضة عنها فيحتضنها الذكر، أما الأنثى فتمشي وتصيد. وقال الخليل: إنها سميت عنقاء؛ لأن بياضًا كان يطوق عنقها. وقال آخر: بل لطول عنقها، وقال فيها أبو نواس:

وما خبره إلا كعنقاء مغرب ... تصور في بسط الملوك وفي المثل
يحدث عنها الناس من غير رؤية ... ترى صورة ما إن تمر وما تحل

ومثلها الرخ، وهو طائر بائد، للعرب فيه أقوال كثيرة؛ فوصفه داود الأنطاكي بقوله: إن منه ما يقارب حجم الجمل وأرفع منه، وعنقه طويل شديد البياض مطوق بصفرة، وفي بطنه ورجليه خطوط غبر، وليس في الطيور أعظم منه جثة ويقال إنه يقصد المراكب فيغرق أهلها، ويبيض في البر وتوجد بيضته كالقبة.. انتهى.

وجاء في رحلات السندباد البحري من حكايات ألف ليلة وليلة، إنه عظيم الخلقة كبير الجثة عريض الأجنحة، متى طار غطى عين الشمس وحجبها عن الجزيرة فخفيت الشمس، وأظلم الجو... إلخ. وغير ذلك مما يضيق عنه المجال. أما المجمع عليه أن الرخ طائر كبير، وجد في جزائر الهند، وانقرض في القرن السابع عشر، وقد عثر على بيضه في مدغشقر، وقيل تبلغ البيضة منه نحو ثلاثين سنتيمترًا في الطول.

والفينيق قد ذكره اليونان، بأنه طائر خرافي يقطن في الصحاري العربية ويعمر أجيالاً كثيرة. وقال غيرهم: إنه طائر بحجم النسر ذو عرف وهاج، وقنزعة ذهبية وريش مبرقش وذنب أبيض وعينين براقتين كالنجوم، وكان إذا شعر بدنو أجله بنى عشه بغصون يطيبها بالطيب، ويعرضها لحرارة الشمس فتلتهب ويحرق نفسه حيًا فيها، ثم تتكون من رماده شرنقة تنشق عن فرخ جديد يحمل بقايا أبيه إلى مدينة هليوبوليس بمصر ليضعها في هيكل الشمس. ويقول العرب: إن الفينيق اسم من أسماء العنقاء، وإن هذه اللفظة جاءت على أشكال مختلفة منها القوقش والقوقيس وغيرها، وكان الفينيق في عصور المسيحيين الأولى رمز القيامة

والبعث، وجعله الصينيون رمزًا للسعادة والفضيلة والذكاء، وإن الألوان الخمسة المقدمة مأخوذة عن ألوان ريشه.

والسمندل، هو طائر زعم العرب أنه يأكل البيش وهو نبت سام بأرض الصين يؤكل وهو أخضر فإذا يبس كان قوتًا لهم، ولا يضرهم شيئًا فإذا بعد عن الصين ولو مائة ذراع وأكله آكل مات لساعته، وهو يستلذ النار ولا يحترق بها، وقد فسر ذلك بعضهم: بأنه يفرز مادة تطفئ اللهيب. وزعم آخرون أنه طائر ببلاد الهند، يبيض ويفرخ في النار، ويعمل من ريشه مناديل تحمل إلى بلاد الشام، فإذا اتسخ بعضها طرح في النار فتأكل الوسخ ولا يحترق المنديل.

ونسور لقمان بن عاد السبعة، ولقمان هذا اشتهر بعقله ودهائه، فكان حكيمًا مشهورًا اختلف في نبوته، وقد جاء في مجمع الأمثال أنه عمَّر سبعة أنسر، وكان يأخذ فرخ النسر فيجعله في جوبة في الجبل الذي هو في أصله، فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو نحوها، فإذا مات أخذ آخر مكانه حتى هلكت كلها، إلا السابع أخذه فوضعه في ذلك الموضع وسماه لبد، وقد عاش لقمان كما زعموا ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وقال فيه طرفة بن العبد:

وكيف يرجى المرء دهرًا مخلدًا ... وأيامه عما قليل تحاسبه

ألم تر لقمان بن عاد تتابعت ... عليه نسور ثم غابت كواكبه

والصدى، هو نوع من البوم عظيم الرأس أينما دار المرء أدار رأسه قبله، وهو يأوي إلى الأماكن الخربة المظلمة، ويسمى أيضًا الهامة، وكان

عرب الجاهلية يزعمون أنه يخلق من رأس المقتول، ولا يزال يصيح في رأسه إذا لم يؤخذ بثأره يقول: اسقوني اسقوني حتى يقتل قاتله. وبسبيل ذلك ما يزعمه سكان اسكتلندا من أن طائر البكاسين إذا شقشق أثناء طيرانه، فذلك دليل على جفاف الجو وقدوم الصقيع ليلاً. وفي فرنسا يقولون أن العقعق إذا بنى عشه في رأس شجرة فإن جو الفصل القادم سيكون عليلاً، وإن بناه أدنى من ذلك فيتوقعون هبوب الرياح والزوابع. وفي ألمانيا يقولون: إن القنبرة إذا صدحت هي والوقواق فإن ذلك إيذان بحلول أيام الصيف. ويزعم المغول أن النقار كان في أول أمره عبدًا لدى موسى عليه السلام، وأنه كان لصًا لا ينقطع عن السرقة، فلما لم يفد معه النصح أنذره موسى بأنه إن لم يقلع عن ذلك الداء فسوف يعيش باقي أيامه على الخشب الذي ينقره السوس. وغير هذا وذاك مما امتلأت به المجلدات الضخمة من الأساطير والمزاعم.

على أن هناك من النوادر المنسوبة إلى بعض أنواع الطير ما يذهب مذهب الأساطير والحكايات. فمن ذلك أن الرومان واليونان كانوا يقتنون الديكة المقاتلة، ويظهرون لها من التجلة والاحترام، فيضعون على قنزعة الديك الظافر إكليلاً من سعف النخل، فإذا مات احتفلوا بتشييع جنازته وأقاموا له نصبًا يتفق ومكانته، وكانوا يعتقدون أن الديك إذا ما بلغ السابعة من عمره أحس كأن بيضة تختلق وتعتلج فيه، فيأخذه الوجوم ويشرع في البحث سرًا عن مكان يبني فيه أفحوصًا لأجلها وهو لا يعلم أن حية تراقبه وتنتظر هذه البيضة بفارغ الصبر، فإذا وضعها احتضنتها هي، وخرج منها بعد أيام حيوان غريب الهيئة أقرب إلى الزواحف يعرف

بالأفعوان. وزعم البعض أن أبا قروان كان من الحيوانات المقدسة لدى قدماء المصريين وله معابد خاصة يأوي إليها، فإذا مات واحد منها حنطوا جثته وحفظوها في مقبرة تخصص لذلك الغرض. على أن هيرودوتس نفى أنه كان يحظى منهم بالعبادة والتقديس، وأنهم إنما كانوا يقدرونه قدره لافتراسه الثعابين والهوام، فضلاً عن فتكه بالحشرات والديدان الضارة بالزرع.

وإن البوقير، وهو أيضًا أبو طوق وأبو قرن، فأبيض الريش تفد منه في كل سنة طائفة إلى جبل يقال له جبل الطير بصعيد مصر، فتتعلق على هذا الجبل وفيه كوة يأتي كل واحد فيدخل رأسه فيها ثم يخرج، ويلقي نفسه في النيل ثم يخرج معه ويعود من حيث أتى.. ولم يزل هذا شأنه حتى يدخل واحد منها رأسه فيقبض عليه شيء من تلك الكوة فيضطرب ويبقى معلقًا، حتى يتلف ثم يسقط بعد مدة، فإذا تعلق ذلك الطائر انصرف الباقون في الحال، فلا يرى شيء منها إلا في مثل ذلك الزمان من العام المقبل. ويقول الصولي إنه إذا كان العام مخصبًا قبضت الكوة على طائرين، وإن كان متوسطًا فعلى طائر واحد، وإن كان مجدبًا لم تقبض على شيء. هذا ما زعمه القزويني في كتاب عجائب المخلوقات. ويزعم اليونان أن الغراب الأسحم كان في أول أمره أبيض اللون أن أبولو كان قد أوفده ليأتيه بشيء من ماء نبع سماه له، فلما لم يعد مسرعًا دعا عليه فاسود ريشه، وعاد لا يرتوي من الماء مهما عب منه.

ولبعض الطير مميزات وطبائع، منها أن الطائر المعروف بالبطريق، وهو يسكن الأصقاع المتجمدة الجنوبية، ويعيش في جماعات تفقس صغاره صيفًا حتى إذا كبرت وترعرعت ألف منها قطعانًا، يترك أمر العناية بها إلى بعض أفراده الكبار، ويذهب هو لشأنه فيبني عشه وتفقس صغاره ويعني بها أكثر من شهر، يقضي منه ٢٧ يومًا لا يتناول فيها طعامًا غير الثلج يطفئ به عطشه، ومن غريب أمره أنه يؤلف الجماعات فتقوم بما يشبه التحركات العسكرية، فتدور جميعًا وفي وقت واحد إلى اليمين تارة وإلى اليسار طورًا، أو تهجم جماعة منها على جماعة أخرى.

الفهرس